

محمد بازي

تقابلات النص وبلاغة الخطاب

نحو تأويل تقابلي

مكتبة الأدب المغربي

تقابلات النص وبلاغة الخطاب

نحو تأويل تقابلي

تقابلات النص وبلاغة الخطاب

نحو تأويل تقابلي

محمد بازي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-973-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الفصل الثالث

التقابلات النصية وأثرها في بلاغة الخطاب الشعري

مقاربة تأويلية تقابلية لمرثية مالك بن الريب التميمي

الفصل الرابع

تقابلات النص وبلاغة الخطاب الشعري الحديث

الفصل الخامس

التقابل بين الخطابات التأويلية

قراءة الكَرامَة الصوفية عند مفتاح وكِليطو نموذجا

الفصل السادس
البناء التقابلي في خطاب الحكمة

تقديم

التأويل التقابلي إستراتيجية قرائية لصناعة المعنى، يمكن الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات وتفهيمها، وهي اختيار إجرائي أُسه محاذاة المعاني بعضها ببعض، وتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها (وجها لوجه) لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي.

تقوم إستراتيجية التأويل التقابلي على التقريب بين العناصر والمستويات ذهنيا، بأي شكل من الأشكال، وذلك عبر إحداث تواجُه بين بنيتين، أو وضعين، أو موقفين، أو غير ذلك. إنه اشتغال في الفهم يقوم على التساند بين الآليات التي تنبني عليها النصوص والخطابات من جهة، وعلى الجهد الذهني المستقصي للمعاني والعلاقات الممكنة بين العناصر النصية والمستويات السياقية.

إن التأويل التقابلي - كما نقترح في هذه المقاربات- إستراتيجية تأويلية يمكن العمل بها كليا أو جزئيا، عبر تطعيمها باختيارات أخرى عند الاشتغال بأدواتها؛ ذلك أن التقابل - ما ظهر منه وما خفي - يظل خاصية كونية وإنسانية ومعرفية وإنتاجية وتأويلية؛ وبالتالي فهو منطلق قرائي يمكن العمل به لتحليل الظواهر الأدبية والفكرية ومعالجة الأفكار والمعاني، وتذوق الأساليب الفنية والجمالية في الخطاب في مدارسنا وجامعاتنا. كما أنه ييسر الوقوف على الأسرار والدلالات الخفية بطريقة متأنية وبسيطة، تفيد الدرس الأدبي، فهو أداة وطريقة تدريجية في عزل المستويات الدلالية وتشقيق المعاني، ثم إعادة بنائها عبر المداخل النحوية، والتركيبية، والصرفية، والأسلوبية، والبيانية، والدلالية، والرمزية في الخطاب موضوع المقاربة التأويلية.

يقوم المقترح القرائي في هذا الكتاب على المزاوجة بين التقديم النظري الموجز، والتقريب التمثيلي والتطبيقي المبسط لإستراتيجية التأويل التقابلي؛ وسيلاحظ القارئ أن مستويات التناول تختلف من نص لآخر، كما أن المفاهيم الموظفة في القراءة متباينة، وهذه سمة مميزة للتأويل بالتقابلات، فهو يتجاوز الحدود الضيقة، والإجراءات المنهجية الرتيبة والمتكررة في التناول، ويفتح المجال واسعا في كل قراءة نصية للإبداع، بالقدر الذي يظهر قدرة صاحبها على الاكتشاف، وابتكار مداخل قرائية قادرة على التفاعل مع النص وتذوقه.

غير أن المبدأ المنطلَق منه يظل واحدا مُوَحَّدا، لأن التقابل يسكن النصوص والإنسان والعالم من حولنا؛ فلا تقال المعاني ولا تكتب إلا بعد أن تُعرَض بشكل تقابلي على المستوى الذهني؛ إذ إن الخطابات تنتج أصلا بكيفية متقابلة عن طريق عرض الأشياء على ما يقابلها، أو يماثلها، أو يضادها، أو يجاورها، أو يتممها، أو يشرحها، أو غير ذلك. إضافة إلى أن صناعة الخطاب الأدبي عموما تتم عن طريق الاختيارات الدلالية الواعية للمنتج، فيحذف ما يريد ويحتفظ بما يريد، وينتقي الأداة اللفظية والأسلوبية المناسبة لذلك. من ثمة يظل التقابل الوسيلة الأنجع للعودة بالمعنى إلى أصوله المتقابلة بشتى أنواع العلاقات والمقصديات.

بمعنى آخر مقابل، إن الاختيارات الإنتاجية للخطاب نابعة أساسا من الوجود المتقابل، والمعاني المتقابلة، ثم من العلاقات المتقابلة بين المعاني، وتبعا لذلك المنطق يحدث فهمها وتأويلها، ثم تفهيمها للآخرين عن طريق التقابل، وذلك أيسر السبل.

يتضمن الكتاب مجموعة من المقاربات التأويلية المرتكزة على آلية التقابل بشكل محوري؛ وهكذا حاولنا إعادة بناء معاني سورة **الفاتحة** الكريمة لإبراز بلاغتها وإعجازها، وتقريب معانيها إلى القراء استنادا إلى المقترح القرائي المشار إليه. كما تناولنا بالمقاربة ذاتها بلاغة

الحِجاج في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. وهو ما يعني أن التأويـل التقابلـي آليـة يمكن تطبيقها،كذلـك، لتحليل الخطابات ذات الطبيعة الاستدلالية، بحثا عن أنظمتها وأدوات الإبلاغ والإقناع فيها.

وتوسـيعا للإسـتراتيجية ذاتهـا، حاولنـا تطبيقهـا علـى نصيـن مـن الشـعر:قديم، وهـو نـص مرثيـة مالـك بـن الريـب التميمـي الشـهيرة. وحديث، وهو نص "نسـر" لعمر أبو ريشـة. وقد اكتسـت المقاربة طابعا تحليليـا وتقابليـا وتأويليـا، يروم بالأسـاس التأكيد علـى فعالية وإجرائية الإستراتيجية المقترحة للوقوف على بلاغة الخطاب الشعري.

ولأن التقابل يسع كل الألوان الأدبية، ويتحقق كذلك في الخطابات الواصفة، فقد عمدنا إلى المقابلة بين قراءتين تأويليتن للكرامة الصوفية، لمؤَوِّليـن مغربييـن معاصريـن، وهمـا محمد مفتاح وعبـد الفتاح كِليطو. وقـد مكننـا هـذا الإجراء مـن الوقوف على الآليات العميقـة العاملة في خطاب التأويل عندهما. وفي الأخير لامسنا بعض الملامح التقابلية في خطاب الحكمة، من خلال نموذج منتقى من كتاب **المحاضرات** للحسن اليوسي.

وهكـذا، فـإن إسـتراتيجية **التأويـل التقابلي** يمكنهـا أن تمنحنا غنى وتعددا وخصوبة وثراء- وإن بدا لأول وهلة أن النص موضوع المقاربة يسـير دلاليـا في مسـار واحـد- لأن القراءة التأويليـة القائمة على مقابلة العوالم والوضعيات والحالات، بوسـعها أن تمكن قارئها من اكتشـاف إمكانيـات كبيـرة لبنـاء المعنـى، فما مـن عوالم أو أحـوال يتحدث عنها النـص أو الخطـاب، إلا وفـي عالم القارئ ما يغنيها ويوسـعها ويقابلها، بـأي شـكل مـن أشـكال التقابل، ظاهـرا أو مقدرا، معلنا عنـه أو نجتهد فـي تحصيلـه عبـر أفعال التأويـل؛ وذلك لأن الله تعالى خلق في الكون تقابلات بديعة، سواء على مستوى الماديات أو المعنويات، وهذا التقابل الكوني الموجود سـلفا هو ما تتأسـس عليها الكتابة والتواصل، كما أن

اختيـار عناصـره بدقة أثنـاء صناعة النص هو ما يعطي الخطاب التأويلي قوتـه وجماليتـه، وإثارتـه التي تظهر في تجليات فنية مختلفة، لكن الذي يوحدها ويلم شتاتها هو التقابل.

نأمل أن نكون بهذا الجهد البسيط قد ساهمنا في إغناء تجربة القراءة التأويليـة بـأدوات وإمكانيـات تحليليـة، تفيد النقـد، وتحليل الخطابات، ومجال إقراء النصوص بالحقلين الأكاديمي والمدرسـي، عبر الاشـتغال بالتأويل التقابلي جزئيا أو كليا، فالمعاني تُصنع بأبعاد وعلاقات متقابلة، وتُتلقى وتُفهم كذلك وَفْق الأبعاد نفسـها، وهو ما يؤسـس، فيما نعتقد، لبلاغة تأويلية جديدة.

والحمد لله كَكَرمه وكَعِزِّ جلاله.

د . محمد بازي

أكادير

5 مارس 2010

الفصل الأول

بلاغة التقابل في الخطاب القرآني
سورة الفاتحة

تقديم:

لا بد من الإشارة إلى أننا وقفنا ونحن بصدد الاشتغال على مباحث التقابل في البلاغة، ونظريات الخطاب، والنقد الأدبي، والمنطق، وعلم النص، على بعض الأعمال المميزة التي تطرقت لظاهرة التقابل في القرآن الكريم، ونخص بالذكر كتاب **التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي لأحمد أبو زيد**[1]، أشار فيه إلى أنماط التقابل في القرآن، كما ألَحَّ على ضرورة توسيع هذا المفهوم ليشمل كل أنماط التعبير، حيث أدرك بعمق أن هذا المفهوم تم تضييق مجال العمل به، ويرى أنه من الخير لهذا الدرس "أن يؤخذ مصطلح التقابل، ويعمم على جميع طرق التعبير التي تنتظم فيها المعاني على وجه من أوجه المقابلة، سواء أكانت مقابلة بين معنيين متضادين فأكثر، أو بين معنيين متخالفين فأكثر"[2]. وصدرت - ونحن بصدد إعداد مواد هذا الكتاب- دراسة أسلوبية تناولت مفهوم التقابل في القرآن الكريم، يضمها كتاب **التقابل والتماثل في القرآن الكريم لفايز عارف القرعان**[3].

---

(1) -أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن الكريم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1992.

(2) نفسه، ص. 135.

(3) فايز عارف القرعان، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، وجدارا للكتاب العالمي، عمان، ط.1، 2006.

وهو كذلك كتاب على درجة كبيرة من العمق والتميز في التناول، حيث لـم يكتـف مؤلفه بحصر التقابلات وبيان أنماطها الشـكلية، وإنما حاول الكشـف عن علاقاتها الخاصة والعامة في السـياق لتبيان قيمها الجمالية والتعبيرية، وتبيان مدى إسهامها في تشكيل المعنى ضمن الصياغة الكلية للجملة والنص[4].

غيـر أن الدراسـتين- رغـم قيمتهمـا العلمية والمنهجيـة في مقاربة ظاهـرة التقابـل في القرآن- توقفتا عند الحدود التحليلية لمظاهر التقابل وتجلياتهـا، وحـدود خدمتهـا للمعنـى. أما اهتمامنا بالموضـوع فيتجاوز مقاربـة تجليـات التقابل ومسـتوياته وبلاغته، إلى اقتـراح مفاهيم تأويلية تعتمـد إسـتراتيجية التقابـل منطلقـا لها، ولا توقِـف الاهتمام عند حدود النص الديني -كما اختصت بذلك الدراسـتان السـابقتان- وإنما توسـعه ليشـمل كل الأنماط النصية والخطابية، في أفق تمتينه منهجيا، وإعطائه القـوة التحليليـة القـادرة على الوقوف عند بلاغة النصـوص وجماليتها، وتقديم أسرار الصناعة الأدبية انطلاقا منها.

ثراء الفاتحة

الفاتحـة هـي عنـوان القـرآن الكريـم إذ إن مضامينهـا تكثيف بليغ معجـز، واختـزال بديـع للكليـات المفرَّعة والموسَّـعة في ثنايـاه، إذ كل عنـوان هـو تجميـع لمقاصـد كتاب أو نص في أولـه. ونظرا لبلاغة هذه السـورة وفضلهـا، ارتأينا الوقوف عند بعض أسـرارها مـن زاوية تأويلية تقابلية لتبيان بلاغتها وإيجاز معانيها، وجمال أساليبها.

إننـا لا نزعـم بهـذا الوقفـة الموجزة عند سـورة الفاتحـة أننا قدمنا لهذا النص الكريم -بشـكل مباشـر أو غير مباشـر- شـيئا ذا أهمية قياسـا إلى عظمته، بل لازلنا في كل قراءة نستظل بظلاله، ونشرب من ينابيعه

(4) فايز عارف القرعان، المرجع المذكور، ص. 1.

العذبة الثرة، ونغتني من معانيه ودلالاته. لكننا واثقون أن هذه المقاربة لا تعدم فائدة نعود بها على آليات تحليل النصوص والخطابات، ففي مكنة القراء الدارسين أن يستعينوا ببعض الأدوات التحليلية المطبقة- هنا- على الفاتحة تمثيلا، وتوسيعها لإغناء قراءاتهم التأويلية، ومن ثمة اكتشاف المناحي البلاغية، والمعاني الخفية في القرآن الكريم.

قال الزركشي: "اعلم أن في تقابل المعاني بابا عظيما يحتاج إلى فضل تأمل"[5]، لذلك نحاول جاهدين طرقه، ليفتح لنا فنلج عوالمه، ونقف على بدائع أسراره. وحسبنا أن نتناول جانبا على درجة كبيرة من الأهمية، وهو البعد التقابلي، الذي نسعى من خلاله إلى تأسيس جمالية تأويلية تعتمد على الطاقات الدلالية التي تختزنها اللغة والتراكيب، ثم تبيان الطاقات المعنوية الكامنة في إستراتيجية التقابل، وهي جزء من فهمنا للعالم من حولنا وللظواهر النصية.قال الحسن البصري: "إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة"[6].

هذا الثراء المعنوي الكبير الذي تزخر به الفاتحة، يفتح أمامنا باب المشاركة التأويلية بالمقاربة التي اخترناها. وما ذلك إلا لقابلية النص للمحاورة الدلالية، والخصوبة المعنوية التي هو عليها. وهكذا، سنحاول الوقوف عند التقابلات الظاهرة والخفية، مقدمين بعض المفاتيح المفهومية والإجرائية لبناء المعاني والدلالات. وكما تقول العرب: من طرق الباب ولَجَّ ولج. والله الهادي لما فيه صواب القصد.

---

(5) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988، ج.3، ص. 519.

(6) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2. 1991، مج.2، ص. 345.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

بوسع القارئ المتأني الذي يعتمد خطة التأويل التقابلي أن يستخلص من البسملة الإمكانيات التقابلية التالية، وبعد ذلك مجموعة من المعاني، ليكتشف أسرار هذا الخطاب الكريم وبلاغة صناعته:

المتبرِّك (القارئ هنا) / المتبرَّك به (الله تعالى) . ويمكن أن نشير إلى تقابل خفي:التبرك باسم الله مقابل التبرك باسم غير الله –العزى واللات مثلا – كما كان يفعل الجاهليون. إن حضور اسم الله دليل على صحة فعل التبرك به ونفي للتبرك بغيره. ويسمح لنا المكون المعجمي "الله" بإبراز التقابل بين: الله/ المألوه. والله أصله الإله، وهو اسم جنس يطلق على كل معبود بحق وبباطل، ثم غلب على المعبود بحق. أما الله فلا يطلق إلا على المعبود بحق.

إذا تعمقنا في دلالة "أَلِه" نجد أنها تدل على التَّحَيُّر، لأن الله تتحير الأوهام في معرفته[7]. وهكذا وبناء على هذا المعنى فإن المتحيرين هم الخلق مقابل المتحيَّر فيه الله تعالى. إن المعاني اللغوية والمداخل المعجمية تمد التأويل التقابلي بإمكانيات معنوية غنية، فكلما توسع البحث اللغوي كلما اغتنت القراءة بمعان جديدة. لكن في الغالب لا يتوقف القارئ العادي إلا عند المعاني الظاهرة، ويظل استخلاص

(7) جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،تصحيح وضبط: محمد عبد السلام شاهين،دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1995، ج.1، ص. 16.

المعاني العميقة من عمل المتخصصين من أهل اللغة والتفسير والفقه. إن التأويل التقابلي تجول فاحص ومتأن لمكامن المعاني وكيفيات صياغتها.

الرحمان تُقابل الرحيم، والتقابل لا يعني فقط التضاد أو التماثل، بل يعني كذلك التكامل والتتميم، فصفة "الرحمان" تتناول جلائل معاني الرحمة وعظائمها، و"الرحيم" تتميم لما لطف منها، والرحمة معناها العطف والحنو، ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها[8].

بالإمكان ملاحظة التقابل الثلاثي بين:الله/ الرحمان/ الرحيم، وهو تقابل تتميمي يثبت معنى الألوهية الحقة، ومعنى الرحمة الكاملة بالعباد. وفيه تعليم للعباد كيف يتبركون به ويحمدونه ويمجدونه. قال الغزالي: "إذا تفكرت وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملة على ثمانية مناهج فقوله (بسم الله الرحمان الرحيم) نبأ عن الذات وقوله (الرحمان الرحيم) نبأ عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرها، ثم تتعلق بالخلق وهم المرحومون تعلقا يؤنسهم به، ويشوقهم إليه، ويرغبهم في طاعته"[9].

بالإمكان الوقوف عند التقابل الضمني،هنا، فذكر صفة الرحمة في البسملة مما يفرح النفس ويشوقها، وفي ذلك ترغيب في الطاعات، خلافا للغضب الذي يوحش النفوس ويخوفها وينفرها. تقوم القراءة التقابلية على العناصر الحاضرة، كما تقوم على العناصر الغائبة والمبنية تأويليا.لأن النسق الأسلوبي هو الصورة اللغوية الظاهرة التي تثوي وراءها ظلال المعاني، إلى أن يقف عليها ذهن مؤول يُخَصِّبها؛ ومعنى هذا أن العمل التأويلي ينطلق من رصد الوحدات التعبيرية ثم رصد

(8) الزمخشري، الكشاف، م.م، ص.18.

(9) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن ودرره، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. 5، 1983، ص. 38.

شبكة علاقاتها، لتجميع كل ذلك في مستوى واحد يعود إلى السطح أولا، ثم يمتد إلى الذهن ثانيا[10].

تضمنت سورة الفاتحة أمهات المطالب والدلالات العميقة. قال النبي (ص) لأُبَيٍّ بن كعب: "ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"[11]. وقال علي رضي الله عنه: "لو شئت أن أُوَقِّر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت"[12]. ومعنى ذلك أن هذه السورة على اختزالها وإيجازها تتضمن معان غزيرة وعلوما شتى. ولقد أفاض المفسرون في هذه المعاني والدلالات.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ *
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ

لو حاولنا فهم الأشياء بمقابلاتها سواء كانت مرادفة أو مضادة، ظاهرة أو خفية، فإن المكونات المعجمية في هذه السورة تمنحنا إمكانيات هائلة، وهكذا فلن نسير في منحى خطي، على غرار التفاسير، بل نتقدم في جميع الاتجاهات التأويلية بهدف إثراء القراءة، وإيقاف القارئ على بعض مواطن الخصوبة والبلاغة في هذه السورة البديعة.

الحمد لله حاصل، وهو تعليم من الله لعباده كيف يحمدونه، مقابل الحمد لغير الله وهو متروك لأنه كفر وجحود وضلال. الحمد المطلق ثابت مقابل الحمد النسبي:بعض الحمد لا يدخل في تعليم الله خلقه وما يريده لهم. ثم إن الحامدين هم المؤمنون والمسلمون مقابل المحمود (الله تعالى) . كما أن الحمد الدائم ثابت ومستقر مقابل الحمد المؤقت غير وارد إطلاقا.

---

(10) فايز القرعان، م.م، ص. 284.

(11) أخرجه البخاري والترمذي والنسائي.

(12) السيوطي، الإتقان م.م، ص. 409.

الحمد كلمة من الله أولا مقابل الحمد من المخلوقين بعد ذلك. وهو تعليم من الله مقابل الحمد تبعا لذلك حمد من العباد وتعلم.

الحمد: ابتداء للكلام يفتح باب السؤال عن الخبر: الحمد لمن؟ مقابل الخبر "لله" الذي يبعد كل التباس، ويؤكد حقيقة واحدة أنه حمد لله. ورد الحمد الذي أراده الله لعباده مرفوعا بالضمة دلالة على الثبوت والاستقرار وهو يقابل الحمد (المنصوب أو المجرور) وهو متغير غير وارد. والحمد هو الثناء الكامل مقابل الذم:النقيض الغائب. ثم إن الحمد:حمد الله الكامل لنفسه منذ الأزل يقابل حمد الخلق المشوب بالعلل. وقالوا إن الحمد والشكر (نصف الإيمان) مقابل الصبر (النصف الثاني للإيمان) .

إن مجمل الخلاصات التي يمكن أن يفضي إليها استقصاء التقابلات التي في: "الحمد لله" يمكن تجميعها كما يلي:إن الحمد كل الحمد لله لا لغيره، وهو حمد مستقر وثابت له وحده، حمد دائم لا انقطاع فيه لشمول نعمه على خلقه وعمومها.وهو،كذلك، حمد الله لنفسه منذ الأزل لعلمه بعجز المخلوقين عن الحمد الكامل له.إنه حمد كامل ممتد لا ينتهي، يستغرق الأزمنة والأمكنة كلها.ثم إن الحمد شطر الإيمان العملي وهو أول الصراط المستقيم، وفضل الحمد كما قال الغزالي كفضل الرحمة على الغضب[13]، لأنه يصدر عن الارتياح وهزة الشوق والمحبة، أما الصبر فيصدر عن الخوف والرهبة والكرب والضيق، وسلوك طريق المحبة أفضل من طريق الضيق في هداية العباد.

رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ

بوسعنا استقصاء التقابلات التالية:الرب يقابله ضمنيا وجود مربوبين.وهو يقابل دلاليا السيد المصلح والمدبر والمربي.الرب بالتعريف خاص بالله تعالى مقابل رب الشيء بالإضافة أي صاحبه،

(13) الغزالي، جواهر القرآن، ص. 39.

مثل رب البيت، يصدق على المخلوقين.الرب مقابل المالك: أي مالك العباد وهم مملوكون.العالمون مقابل غير العالمين، كما أن العالمين تُقابِل الإنس والجن والملائكة والشياطين.والعالم الظاهر يقابل العالم الخفي، ويقابل أولو العلم (المكلفون) ما لا يعقل إجمالا.

إن تشقيق المعاني انطلاقا من الألفاظ اليسيرة، يمنح القارئ المتفهم والمؤَوِّل إمكانيات هائلة لتوسيع الدلالة، سواء تعلق الأمر بتقابل الترادف أو التماثل المعنوي أو تقابل التضاد والتخالف؛ لأن الأشياء تتجلى بنظائرها، أو بأضدادها، أو بمتمماتها. وهكذا فمعنى "رب العالمين" سيدهم ومالكم ومربيهم؛ فالله هو الخالق المالك، والعالَمُ هو المخلوق بتنوعه، مدين لله بإنعامه وخلقه وتربيته.قال السعدي: "وتربية الله لخلقه نوعان:عامة وخاصة، فالعامة هي خلقه المخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه"[14].

إن المعنى الذي نستفيده من إجراء التقابلات الممكنة هو إفراد الله بالخلق والربوبية، وتدبير شؤون الخلق ورزقهم. ومن كانت كل أمور الخلق منوطة به من بدايتها إلى نهايتها، فهو أحق بالعبادة والطاعة، فالحمد لله لربوبيته وإلهيته وخلقه وإنعامه وإكرامه الخلق وعظمته وجلاله. ومن علامات ربوبيته إرساله الرسل والأنبياء للناس لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبق أن أشرنا أن بين "الرحمان" و"الرحيم" تقابل تتميم؛ فدقائق ولطائف معاني الرحمة في الرحيم إكمال لجلائل وعظائم معاني الرحمة

(14) عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، الطبعة 1، 2000، ص. 39.

فـي الرحمـان. ونقابـل الآن هاتين الصفتين بــ: "رب العالمين"؛ تحمل "رب العالميـن" معانـي العظمـة والجـلال، وفـي ذلـك ترهيـب للعباد، فقوبلـت ضمنيـا بمعانـي الرحمـة فـي: "الرحمـان الرحيـم"، وفي ذلك تقابـل بيـن: الرهبـة من اللـه والرغبة إليه، وذلك أعـون على طاعته.كما قال تعالى في تقابل بديع: "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم". ومن تمام رحمة الله على عباده تعريفهم ما ينالون به كمالهم الدنيوي والأخروي، عن طريق الرسل والأنبياء الذين حملوا الهداية للعباد.ومن المعاني الفرعية المتقابلة داخل معنى الرحمة: الرحمة بالماديات من المأكل والمشـرب والملبس وغيرها من نعم الله التي لا تعد ولا تحصر، والإنعام الروحي بما فيه حياة القلوب والأرواح، وكل ذلك داخل ضمن رحمة الله.

مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ

تمنحنـا الآيـة موضـوع الفهـم إمكانيـات تقابلية:ملـك: اللـه مقابل المملوكين:العبـاد. مالِك-قـراءة صحيحـة عن النبي (ص) - مقابل مَلِك قراءة كذلك صحيحة. ملك مقابل يوم الدين. الزمان (يوم) يقابل ضمنيا المكان، وفضاء الحساب كذلك ومكانه مملوكان ومالكهما الله تعالى.

وبوسعنا توسيع دائرة التقابل فنقول: اليوم على الحقيقية: من طلوع الشـمس إلى غروبها مقابل اليوم على الاتسـاع ما بين بداية القيامة إلى حين استقرار أهل الدارين فيهما. وتسمح لنا كلمة "الدين" بتوليد معان إضافية، فيوم الدين يحتمل ضمنيا وجود المُدين: المحاسِب: الله تعالى مقابل المدانين: المحاسبين وهم الخلق. ومن ثمة فالامتلاك الكلي ليوم الديـن حاصـل للـه تعالى، ويقابله كون الامتـلاك الجزئي والكلي منتف في حقه تعالى.

تبعـا لذلـك، فالممتلـك امتلاكا تاما ليوم الديـن أحق بالحمد. أما المعانـي الفرعيـة التـي يمكن توليدها وتنميتها من ذلك فهي: مالِك أبلغ

في مدح الخالق مقابل مَلِك أبلغ في مدح المخلوقين. ينضاف إلى ذلك أن المالك دلاليا ملك في مقابل أن ليس كل مالك ملكا. ويحتج ذلك على مستوى الشرح والتوضيح أن سائر الأيام عمل ولا حساب، مقابل يوم الدين حيث الحساب بعد انقطاع العمل بالموت. وحيث كمال الملك يوم الدين لله، ويقابله سلبا انقطاع أملاك الخلائق. ثم هو يوم للجزاء (أهل الجنة) مقابل العقاب (أهل النار)، بناء على ما جاء به الناس من أعمال الخير مقابل ما جاؤوا به من أعمال الشر. وكل ما يتعلق بهذا اليوم من مكونات يمكن استحضاره بشكل تقابلي لتكتمل الصورة، وهو أسلوب حاضر بقوة في الخطاب القرآني، وفي عرض مشاهد القيامة، فالفقراء والأغنياء على السواء ينتظرون الجزاء، والأحرار والعبيد كذلك، الذكور والإناث، المؤمنون والكفار....

ومما يسمح بتقريب المعاني من قارئ سورة الفاتحة عرض المعاني المفهومة عرضا تقابليا، ومن ذلك أن نقص مِلْك الخلائق يقابله كمال الملك والعدل لله تعالى. ولعل من الأسرار اللغوية التي يسمح بها المعجم العربي أن كثيرا من الكلمات تستعمل بمعان مضادة حسب السياق، وعبر المقابلة بين المعاني نجد أن "دان الرجل" بمعنى أطاع مقابل "دان الرجل" بمعنى عصى.كما أن "دان الرجل" تستعمل بمعنى عَزَّ مقابل "دان الرجل" أي ذل، فهو من الأضداد. و"التضاد نوع من الاشتراك، وهو من أعجب ما في أمر هذه اللغة، لأنه إيقاع اللفظ الواحد على معنيين متناقضين، ومثل ذلك، إذا لم تصح فيه الحجة، ولم ينهض به الدليل كان عبثا؛ لما فيه من التباس أطراف الكلام ورجوع بعضه على بعض بالنقض، وإن أُصحب من القرينة بما يوضح تأويله ويعيِّن جهة الخطاب فيه"[15]. ويوم القيامة يحتوي كل هذه الأصناف

(15) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة.2002، ج.1، ص. 163.

والحالات، حيث يجتمع الطائعون لله والعاصون، وحيث يُعِز الله تعالى من يشاء ويُذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

أردنا أن ننبه القارئ عبر آلية التأويل بالتقابلات إلى بلاغة نص الفاتحة الكريمة، وامتلائها بالمعاني العظيمة، ظاهرة وخفية؛ ولذلك سخرنا هنا آلية التقابلات المبنية أي التي يبنيها التأويل، والدوران على المعاني، والإشارات العميقة التي تمنحها العبارات على اختزالها.وهكذا يمكن تجميع المعاني التي منحتها لنا الأبعاد التقابلية في أن الحمد لله مستحق، وهو حمد كامل مستقر صادر من القلوب المؤمنة في كل زمان ومكان، لربوبيته، وألوهيته وعظمته، ولأنه هو الذي يملك العباد يوم الدين ليقرر في شأنهم ما يشاء يوم الثواب والعقاب، ومن ثمة فهو أدعى للرهبة والخوف، لأن مصائر العباد متعلقة بخالقهم، فمن شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار. ومن شاء غفر له ومن شاء عذبه. إنه اليوم الذي تنقطع فيه أملاك الخلائق ويبقى الملك لله. وتثبت هذه الآية المعاد والجزاء والعقاب. ومقابل الحمد الذي علمه الله لنا، فقد علّمنا نَبِيُّه كذلك عبارات الحمد لله: "الحمد لله عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته"، و"الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه"، و"الحمد لله ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما من شيء شئت بعد".

إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ

من التقابلات الظاهرة في هذه الآية: تقابل نحوي ظاهر أصل مقابل بناء نحوي مُحَوَّل لغرض بلاغي عن الترتيب الأصلي، وقد أفاد المفعول المقدم حصر العبادة في الله وحده، مقابل الفاعل المؤخر. كما تمت مقابلة العبادة الدالة على الخضوع والالتحام الإيماني الكبير بالاستعانة القائمة على جلب المنافع ودفع المضار.ثم الانتقال الأسلوبي

من الغيبة إلى الخطاب، وهو يخلق نشاطا عند السامع، وبناء تقابليا بديعا في تلوين الضمائر، أو ما يسميه القدامى بالالتفات.

أساس العبادة قوة التذلل لله والخضوع، وفي ذلك إعلان عن الضعف والاستسلام للخالق، ثم يكتمل إظهار الافتقار إليه عبر مقابل مماثل وهو الاستعانة به، وكلاهما طريق معبد مذلل للسالكين. وتتفرع عنهما معان خفية؛ فالعبادة تقوم على تحلية النفس والإخلاص في أداء الشعائر، مقابل الاستعانة وهي تزكية النفس من الشِّرك وطلب الحول والقوة من الله تعالى دون غيره، ولا بد من الإشارة إلى تقديم العبادة وهي الوسيلة والسبيل، مقابل تأخير الاستعانة وهي الغايات، وكأن في ذلك إقرارا بضرورة إنجاز العمل وتقديم الطاعة وإظهار التذلل قبل طلب المعونة، وفي ذلك أدب كبير مع الله تعالى، وهو أدعى للاستجابة كما هو مثبت في الكثير من النصوص القرآنية والحديثية.

ثم إن الاستعانة المرادة مطلقة غير محددة، ومقابلها الضمني الاستعانة المحدودة في أمر معين وهي غير واردة، وهو دليل قدرة الله تعالى على الاستجابة لكل ما يطلبه عباده، فلو حُدِّد موضوع الاستعانة في أمر واحد دقيق، لفُهِم العَجز عن إجابة كل الدعوات، وذلك منفي ضمنيا، فقدرة الله تعالى تتسع لجميع حاجات عباده.

ويمكن أن نستخلص من هذه التقابلات المعاني التالية، إذ الهدف من إجرائها تبيان المعاني والدلالات وإبرازها على أجلى صورة. بعد حمد الله حمدا كاملا مستغرقا تاما لا نقص في ولا انقطاع لاستحقاقه العبودية؛ لأنه الخالق والرب والرحمان والرحيم، يقر المؤمن -كما علَّمه الله أن يتضرع إليه ويدعوه- بأن العبادة لله وحده، والاستعانة عليها وعلى غيرها من أمور الدنيا مطلوبة منه وحده. وقد عمل الحصر وتقديم المخصوص بالعبادة والاستعانة على قصر التذلل والخضوع على

الله عز وجل دون غيره من المخلوقين والمخلوقات.

كما أن المعين على طريق الصلاح والمنافع ودفع المضار يحصره المؤمن في الله تعالى دون سواه. وتختزل الآية جانبين رئيسين من عقيدة المؤمن، وهما تحلية النفس بالعبادة والإخلاص، وتزكيتها بنفي ما لا ينبغي، وقد تضمنهما التقابل الخفي المبني انطلاقا من الصراط المستقيم، وهي دون جدال طريق تحلية النفس بما ينبغي وتزكيتها مما لا ينبغي.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

بوسع القراءة التأويلية المتأنية أن تستقصي مجموعة من الإمكانيات التقابلية التي تساعد على الفهم العميق، واستقصاء جهات واسعة من الدلالة انطلاقا من الآية:الأمر الحقيقي مقابل الأمر الاستلزامي، حيث إن الأمر هنا خرج عن مقتضاه الأصلي الذي هو طلب الفعل على وجه الوجوب والاستلزام- من مقام أعلى إلى مقام أدنى- ليتخذ معنى الدعاء والطلب والسؤال، لأنه صادر من مقام أدنى (العبد) إلى مقام لا يعلوه مقام (الله) ؛ وهكذا فهناك طالب الهداية مقابل القادر على الهداية والمأمولة فيه بشكل مؤكد.وهو كذلك تقابل في فاعلية الهداية (لله) مع المهدي (العبد) أولا، والمهتدى إليه ثانيا وهو الصراط المستقيم. وبشكل ضمني أو عبر الحذف البليغ، والذي يبنيه التأويل بالتقابلات نحدس السؤال: كيف أُعينكم؟ فجاء جواب العباد المخلصين: اِهْدنا الصراط المستقيم، وفي ذلك رفع لمقامهم، وكأنهم عرفوا الحقيقة الدنيوية ومآل الأمر كله إلى الله، وإلى الحساب، ثم الجزاء أو العقاب فلم يطلبوا أي شيء من ماديات الحياة الفانية، وإنما طلبوا ما يهدي إلى طريق الخلاص.

وبالعودة مرة أخرى إلى الآية الأولى نلحظ أن السورة كلها يحكمها تقابل نووي مركزي: مجمع الثناء والشكر مقابل مجمع المطالب والحاجات.

معنى الهداية الإرشاد والإمالة إلى الصراط المستقيم، وفي ذلك تقابل إدراك الداعي لأمرين متقابلين: الصراط المستقيم مقابل الصراط غير المستقيم.وأصل الصراط: السِّراط، من الاستراط، وكأن الطريق تسترط من يسلكها.وهو تقابل آخر بلاغي بين الصراط على الحقيقة (غير وارد) والصراط مجازا وهو المراد.

وكما لاحظنا هنا تقابل المفارقة بين معنى الصراط المستقيم والصراط الملتوي أو المعوج، أو صراط المغضوب عليهم والضالين، أمكننا أن نلحظ التقابل التماثلي بين الصراط المستقيم وبين صراط المنعم عليهم.على أساس أن "الصراط" الثانية بدل من الأولى. وكذا تقابل المنعِم والمنعَم عليهم، والغاضب والمغضوب عليهم، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم، والمغضوب عليهم والضالون، والضال والمضل. وهي كلها إمكانيات تحليلية وتأويلية تفصل بين المستويات الدلالية وعوالمها.

تحفل الآية بمعان متقابلة: النعمة على الأولياء مقابل النقمة على الكفار، وهو كذلك تقابل ترغيب للمؤمنين وترهيب للمغضوب عليهم (اليهود) والضالين (النصارى) . وتُبَين الضمائر الظاهرة والمستترة عن بنيات تقابلية: (إياك) الدالة على الخطاب مقابل التكلم (نعبد)، ثم المخاطَب المفرد مقابل جمع المتكلمين.و المعنى المستخرج من ذلك أن الداعين كثيرون، وفي كل زمان ومكان، أما من سُئل الإعانة فواحد في كل زمان وكل مكان. وهذا أقوى دليل على ألوهيته وربوبيته وعظمته وقدرته على إجابة السائلين كيفما كانت أزمنتهم وحاجاتهم، ومطالبهم القريبة أو البعيدة، الصغيرة أو الكبيرة. وهو معنى عميق يدعو إلى التأمل

والتفكر في عظمة الخالق.

وكـذا الخطـاب في (أنعمتَ) مقابل الغيـاب (عليهم)، فالمخاطَب مُنعِم -الله تعالى- والمتكلَّم عنهم مُنعَم عليهم أو مغضوب عليهم. وفي هذا إشارة إلى تحقق النعمة على المؤمنين وتحقق الغضب على الكافرين. وبذلـك ينفتـح النـص علـى قصـص الأوليـن واليهـود والنصارى،وعلم التاريـخ والنبوات،فيقـدم للمؤمن الشـغوف بمعرفة أسـباب الإنعام على المنعـم عليهم وأسـباب الغضب علـى المغضوب عليهم مفاتيح البحث والسـؤال عـن قصـص الأوليـن؛ وهـو مـا سـيزيده اطلاعـا وتمعنـا فـي الرسـالات السـابقة، ومصيـر المؤمنين ونهايـات الجاحدين، حيث يطلع قـارئ القـرآن الكريـم علـى تفاصيل قصـص الأنبياء والمرسـلين مقدمة بشكل بديع وبليغ.

إن الفاتحة عنوان للقرآن، وأم القرآن؛ وعنوان الشيء -كما أشرنا- يختزل مضامينه في أوله.

يحقق الانتقال من ضمير إلى آخر تلوينا بلاغيا: "الالتفات"، ونقلا للكلام من أسلوب إلى أسلوب، وفي ذلك تطرية لنشاط السامع، خاصة وأن السـورة يرددها العابدون والمصلون كثيرا. تنطوي بنية الزمن على الحاضر والمـستقبل، ويفصح عنها الفعلان (نعبد ونستعين)، وفيها امتداد الفعل من الزمن الحاضر نحو المـستقبل الممتد غير المحدود إلا بعلم الله. ومهما بلغ العابدون من العمر فلن يعيشوا كل هذا الزمن اللامحدود التي يُفصِح عنه الفعلان، مقابل ذلك فالإقرار بالحمد المطلق لله وحده، وحصر العبادة وطلب الإعانة منه وحده يشمل أعمار كل الداعين بسورة الفاتحـة والقارئيـن لهـا، في أي زمن عاشـوا وفي أي مكان كانوا. وهذا دليـل قـوي علـى عظمـة هذا النص وبلاغته التي لا تبلى مع الزمن، ولا تَخْلَق أو تبلى على كثرة الرد، فهي تُعاد في كل يوم سبع عشرة مرة إذا اكتفينـا بالصلـوات المكتوبة؛ ولأن المؤمنين لا يكتفون عادة بالفرائض،

وإنمـا تصلـى بهـا النوافل، وتختتم بها الأدعيـة، فهذا بيان أن الله تعالى عندما اختار لعباده سـورة الفاتحة في الصلاة كان ذلك عن علمه الذي لا يحده حد بما في هذه السـورة من المعاني الجمة والفوائد العظيمة، فهل نحن متدبرون لها حق التدبر في كل صلاة وكل دعاء؟

من التقابل الذي يمكن ملاحظته كذلك: الصراط المسـتقيم: المفسَّر (موضوع التفسـير في النص) والمُفسِّر له (صراط الذين أنعمت عليهم)؛ فالصـراط المسـتقيم الـذي لا اعوجـاج فيـه هو طريـق المنعم عليهم من النبيئين والرسـل والملائكة والصديقين والصالحين والشـهداء؛ ثم يقابل ذلك مسـلك المغضوب عليهم والضالين.وتبعا لذلك نتوسـع في بعض التقابلات المتفرعة المبنية على هذا التقابل:فالمُنعَم عليهم عارفون بالحق عاملون به مقابل المغضوب عليهم: عارفون للحق غير عاملين به، وهـم اليهـود (مـن لعنـه الله وغضب عليه)[16]. ويقابـل المؤمنين المنعَم عليهم كذلـك الضالـون وهـم النصارى (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)[17]، لأنهم لم يهتدوا إلى العبادة والحق من بابيْهما.

ولنا أن نتأمل قليلا في بعض التقابلات المعنوية الدقيقة ل (اِهدنا)، والتي يمكننا بناؤها بناء على المنهاجية المعتمدة:

قبـل الهدايـة يقابل بعـد الهداية.الهادي يقابـل المهدي.المهديون في مقابـل المهتـدى إليه.الضلالـة تقابـل الهداية.الهداية الجزئيـة تقابل الهداية التامة.المعلوم من الهداية قليل عند أكثر الخلق، مقابل المجهول من الهداية كثيـر عنـد أكثـر الخلق.الهدايـة مع العمـل القليل مقابل الهدايـة مع العمل الكثير.سـؤال الهدايـة (اهدنا) للهداية مقابل سـؤال الهدايـة للتثبيت.الهداية في الدنيا إلى طرق الخير مقابل الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة.

وهكـذا فمـن هُـدِي فـي هذه الـدار إلـى الطريق المسـتقيم، علما

---

(16) المائدة: 60.

(17) المائدة: 77.

وعملا، هُدي هناك إلى الصراط الموصل إلى الجنة.

يتبين من خلال التأويل التقابلي أن كل كلمة من الفاتحة الكريمة تتضمن معان غزيرة، وعلوما شتى، وبلاغات داخلية عديدة ذات قابلية كبيرة لتأويلها وتوسيع معانيها؛ فمن كان ضالا فهو يطلب الهداية الأولية، ومن كان مهديا فهو يطلب الاهتداء إلى ما يجهل من أسرار الصراط المستقيم، ومن كان مهديا عاملا فهو يطلب التثبيت والاستمرار، أو يطلب الاهتداء إلى طريق الجنة في الآخرة.

أما قوله تعالى: (أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم) ففيه تقابلات نحوية بديعة، وهي تفضي بنا إلى معان لطيفة: لاحظ أن الله أضاف النعمة إليه، مقابل حذف فاعل الغضب وبنائه للمجهول؛ لأن النعمة فضل وخير، والغضب انتقام، فأضاف إلى نفسه أحسن الأمرين وأفضلهما (النعم)، وخص غضبه بغيره، فالذين يغضبون لله هم ملائكته وأنبياؤه ورسله.

ومن بلاغة حذف فاعل الغضب معنى الإشعار بالاحتقار، وتصغير شأن المغضوب عليهم. أما ذكر فاعل النعمة ففيه إكرام للمنعم عليه ورفع من شأنه. فإن قلنا: هذا الذي أكرمه الخليفة فهو أبلغ في الثناء والتعظيم من قولنا: هذا الذي أُكرم.

و يمكننا عبر التأويل بالتقابلات أن نبني من (أنعمتَ) تقابلا آخر وهو النعمة المطلقة (خاصة بالمؤمنين)، مقابل مطلق النعمة الذي يشمل المؤمن والكافر. كما أن التقابل واضح بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فالهدى والسعادة مترابطان ومتلازمان، والضلال والشقاء متلازمان. أما الطريق الموصل إلى الله فهو واحد: طريق الصراط المستقيم طريق الإسلام، وهو الطريق المفتوح والسالك والقريب، والذي يتسع لمرور كل من يسلكه، وهو الطريق الذي عيَّنه الله للوصول إليه والظفر بجنته ورضاه.

خلاصات

لا شك أن تعدد الإمكانيات التقابلية الظاهرة والمبنية، تبين غنى معاني هذه السورة الكريمة وبلاغتها، وعمق أسرارها؛ لهذا سماها الغزالي **مفتاح الجنة**، فهي فاتحة لكتاب الله وهي مفتاح الجنة لأن "أبواب الجنة ثمانية ومعاني الفاتحة ثمانية"[18]، ويقصد بهذه المعاني ما تضمنته من إشارات موجزة إلى: الذات والصفات والصراط المستقيم بشقيه: التحلية والتزكية، وذكر المعاد، ونعمة الأولياء، وغضب الأعداء.

قصدنا من الاشتغال بآلية التأويل التقابلي على سورة الفاتحة الإشارة إلى إعجاز النص القرآني وبلاغته، وهي بلاغة قد يكتشفها المؤَوِّل اللغوي والنحوي والبياني، والعالم بالدين، والعارف بقصص القرآن والعقيدة، وهي فسحة للقارئ في كل زمان، وأينما كان للاقتراب من أطايب هذا النص العظيم، وأثماره وبحور معانيه.

من وجوه بلاغة الخطاب القرآني قوة معانيه المتقابلة بشكل بديع ورائق، وعبر التأويل التقابلي يمكن عرض الحقائق والأحوال والمعاني الظاهرة والخفية عرضا وافيا، بغرض الإفادة والإيضاح والتفهيم. ومن ثمة تتقوى جدوى التأسيس لبلاغة تأويلية تقابلية في مجال التفسير، تعتمد المداخل اللغوية والنحوية والبلاغية والدلالية للوقوف على أسرار معاني النصوص القرآنية، التي تخدم الإنسان وتصل به إلى جنات الرضوان.والحمد لله أولا وأخيرا.

---

(18) الغزالي، جواهر القرآن، م.م، ص .43.

الفصل الثاني

التقابل وبلاغة الحجاج
في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي

"ما يُبنى على قلوب الخَلْق يُضاهي ما يُبنى على أمواج البحر فإنه لا ثَباتَ له"

الغزالي

تقديم

لا شك أن أسلوب أبي حامد الغزالي[1] أَسَر كثيرا من القراء

(1) ولد الغزالي سنة 450هـ بطوس، كان والده يغزل الصوف ويبيعه، سافر أبو حامد إلى نيسابور واجتهد في تحصيل العلم، فبرع في الجدل والمنطق والحكمة والفلسفة، وكان شديد الذكاء، عميق المعاني، غواصا على الأسرار الدقيقة.
قصد الوزير نظام الملك، وفي مجلسه ناظر الأئمة والعلماء فقهر الخصوم وهزم الجميع، فتولى التدريس بالمدرسة البغدادية، فأعجب الناس بكلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه.فشدت إليه الرحال وضربت به الأمثال.
ترك بعد ذلك دنيا الجاه والمال، فقصد بيت الله الحرام للحج، ثم توجه إلى الشام حيث اعتكف في زاويته بالجامع الأموي. فقلل طعامه وشرابه، وبدأ في تأليف كتاب إحياء علوم الدين، مجاهدا نفسه ومكلفا إياها العبادات الشاقة، ثم رجع إلى بغداد وحدث بكتاب الإحياء، ثم عاد إلى خراسان ودرَّس بالمدرسة النظامية ثم اتجه إلى طوس،واتخذ إلى جنب داره مدرسة للفقهاء. وتوفي هناك سنة 505 هـ.
من مصنفاته: المستصفى، وكتاب المنخول، وشفاء العليل، وتحصين الأدلة، وتهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، ومعيار العلم، ومشكاة الأنوار، وجواهر القرآن، والمنقذ من الضلال، والخلاصة في الفقه، والمبادئ والغايات، وكيمياء السعادة، ونصيحة الملوك،و الرياسة اللدنية،ومقصد الخلاف، ومحك النظر، والاقتصاد في الاعتقاد، وشفاء العليل في القياس والتعليل، والمقاصد، وغيرها.

على مر الزمن، وجعلهم مرتبطين بكتاباته، شديدي التعلق بها، لا يكاد الواحد منهم ينهي كتابا مما أَلَّف حتى يبحث عن غيره. وقد عشت تجربة هذا الأسر الجميل لمدة سنوات عديدة بدءا بكتاب "المنقذ من الضلال"، مرورا بـ"إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن" و"معيار العلم"، "ومجموع رسائل الإمام الغزالي" وغيرها من الكتابات القيمة لهذا العالم الجليل؛ غير أنني مافتئت أتساءل عن سر صناعة الخطاب التي يمتلكها، والبلاغة الخفية التي يسحر بها الغزالي قراءه.

وبعد مطالعات متناوبة ومتراخية في الزمن، بدأتُ أكتشف بعض أسرار جمالية الحجاج وبلاغاته، والتي يمكن اعتبارها نسقا ممتدا داخل كتاب **الإحياء** خاصة. وكما سنبين فهي خاصية لا تقتصر على رونق الأسلوب وانتقاء العبارات، واختيار المفردات، وإنما تتجاوز ذلك لتعكس نمطا من التفكير والتصور حول الحياة والكون والإنسان والدين، وهي التي يجمعها مفهوم التقابل الذي سبق أن طبقناه وجَرَّبناه إجرائيا في تحليل العديد من النصوص والخطابات، وسنحاول في هذه المقاربة أن نقف عند تجلياته وبلاغته الحجاجية عبر نماذج تمثيلية من هذا الكتاب، دافعين بهذا المفهوم نحو الأجرأة والتحقق، فلنستمتع بجماليته في هذا المؤلَّف القيم.

موضوع الاشتغال

انطلق الغزالي في تأليفه للكتاب من نسق تصوري واضح قائم على التقابلات، ولذلك رتبه على المواضيع المحورية التالية: العبادات مقابل العادات، المُهْلِكات مقابل المُنْجيات. غير أنه تقابل يلحظه القارئ بقليل من الإمعان، ولا شك أن الغزالي كان يعي جيدا حقيقة ما يصنع، وهو عرض الأمور عرضا تقابليا، لما في ذلك من علامات بيان وعناصر إيضاح.

وبإمكاننا أن نبحث عن الإطار الكلي التقابلي الذي يحكم

عملية التأليف والكتابة عنده.وهنا سيتبين للقارئ المهتم بأمور التأويل وجماليات التقابل أننا لن نبحث في صحة المضامين، وانسجام المادة المقدمة مع الشريعة أو غير ذلك، فقد تطرقت العديد من الكتابات لهذا منذ القديم، وكان لأبي حامد أعداء كثيرون في المشرق والمغرب، كما كان لـه معجبون بـه كُثـر، ومـا زالوا إلـى يومنا هذا؛ لذلك سنعنى هنا بتحليل الخطاب، وأسرار بلاغة الحجاج في صناعة الكتاب.

تقـع هـذه المقاربة على مستوى تأويلي ذي بعـد تحليلي ونقدي، يسعى لبنـاء خطوات تأويلية لمقاربـة الخطابات،وهي قائمة على آليات التقابل كما أشرنا.

دواعي تأليف الكتاب وبناؤه

يقر الغزالي في خطبة الكتاب أن من دواعي تأليفه لكتاب "الإحياء" الرد على العالم التابع للباطل على حد قوله. ومنذ افتتاح الكتاب توجه إليـه بقـوة ناعتـا إيـاه بالمغالاة في لومه وتقريعـه، وبجحوده وحياده عن الحـق. ثـم نبَّـه إلـى أن أمـر هـذا الدين لا يقبـل التهـاون،لأن "الأمر إدٌّ والخطـب جِـدٌّ، والآخـرة مقبلة، والدنيا مُدبرة، والأجل قريب، والسـفر بعيد، والزاد طفيف، والخطر عظيم، والطريق سـد، وما سـوى الخالص لله من العلم والعمل عند الناقد البـصير رَدٌّ، وسـلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومُكِدٌّ"[2].

يتأسـس مشـروع أبـي حامـد الإحيائي على تجاوز المسـاوئ التي سـقط فيها العلماء بالدين من اتباع الدنيا والاسـتجابة للأهواء والسـلط، والبحث عن نيل المراتب أمام العامة والخاصة، بالمباهاة والجدل وطلب الغلبة. ولذلك جعل نصب عينيه إعادة العالِم المنشـغل بالدنيويات إلى

(2) أبـو حامـد الغزالـي، إحيـاء علوم الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج.1، ص.2.

جادة الصواب وطلب طريق الآخرة. وهو قرار اتخذه الغزالي بكل جرأة، غير أنها جرأة العالم المفكر والمحرر البارع وصاحب المنطق والبرهان: "أقتحم لجة البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحَذور، وأتوغل في كل مَظلمة، وأهجم على كل مشكلة... وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة. وكان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي ودَيْدَني"(3). لقد سعى الغزالي عبر مشروعه الإحيائي إلى الوقوف على حقائق الأمور وقوفا تنكشف فيه الحقائق انكشافا تاما؛ فالعلم الذي لا أمان معه ليس علما يقينيا.

وحتى لا نبتعد عن موضوعنا ومقصدنا من هذه المقاربة، وهو كما أشرنا تحليل تماسك الخطاب في كتاب **الإحياء**، لا محاسبة الغزالي في عقائده وتصوراته أو مرجعياته أو صحة ما يقول، وإنما أن نتناول بالتحليل أسرار بلاغة القول والحجاج لديه، وجمالية التقابل في بسط المعاني والأسرار والمقاصد.

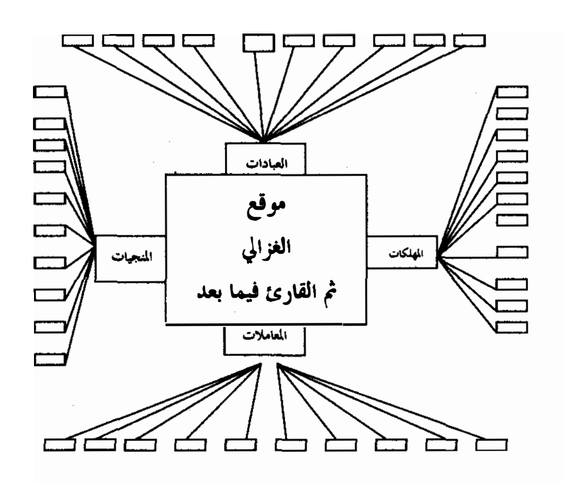
من الملامح الأولى لسمات التقابل المركزي هو طريقة التقسيم، ومنهجية التأليف التي تعكس تصورا شموليا واضحا لموضوع الكتاب؛ وهو يتوزع على أربعة أرباع:ربع العبادات مقابل ربع العادات، ربع المهلكات مقابل ربع المنجيات. وكل ربع يتكون من عشرة كتب، والأرباع الأربعة تكَوِّن وحدة متكاملة لروح الشريعة الإسلامية في مقاصدها وأسرارها.

إن تصور الغزالي لنسقه في التأليف ذو طابع مغلق دائري تشكل نقط الدائرة الكتب الأربعين، وداخل الدائرة في محورها يوجد العقل المدبر للتأليف والترتيب والتنسيق والحجاج. غير أن هذا الموقع الذي احتله مصنِّف "الإحياء" في مرحلة الكتابة ما لبث أن غادره، تاركا إياه لكل واحد منا ليخلق مع الكتب الأربعين مسافة محددة، ثم ليرى

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.1، ص. 10.

بعد ذلك في كل باب من أبواب الكتاب صورة رحلة معرفية وتأويلية للغزالي مع الشريعة وأسرارها.

وإذا جاز لنا أن نتصور مشروع كتاب **الإحياء** بهذا الشكل الدائري، يجوز لنا كذلك أن نتصوره في شكل مربع، على أساس أن كل ضلع يحتوي عشرة كتب بحيث يقابل ضلع العبادات ضلع العادات، وضِلعُ المهلكات ضِلعَ المنجيات. وإذا كانت هذه التقابلات حاضرة بشكل من الأشكال في تدبير الكاتب لأمر التأليف، فإنها تشتمل على تقابلات جزئية بين الكتب فيما بينها.



يرى الغزالي في خطبة الكتاب أن مجمل المباحث والموضوعات التي تناولها سبقه إليها غيره، وإنما تمتاز مقاربته لها بسمات فنية وموضوعية تتمثل في "حل ما عقدوه، وكشف ما أجملوه، وترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه، وإيجاز ما طَوَّلوه، وضبط ما قرروه. حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه، تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلا..."[4].

---

(4) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج.1، ص.3.

لقد كان الغزالي ملما بالحدود التي وصل إليها التأليف في أمور الدين، عارفا بخصائصها وميزاتها، مدركا لجوانب القصور فيها. ولذلك سعى رغم إقراره بتباين زوايا النظر، واستعصاء بعض الأمور على الأفهام إلى إثبات وجهة نظره الخاصة، وتأسيس مسافة معرفية مع علوم الدين تقوم على التبحر، والاستقصاء والاستكشاف، وتتميز تحريريا بحل المعقود وكشف المجمل، وترتيب المفرَّق، وإيجاز المطولات وضبطها، وحذف المكررات، وإثبات المحررات، والتحقيق في الأمور الغامضة.

ويُرجع الغزالي تقسيم كتابه أربعة أقسام إلى كون الترتيب في التحقيق والتفهيم أمرا ضروريا، لأن علم الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة. وانطلاقا من خطة التأليف الأولية يكتشف الغزالي هذه الثنائيات ويبني عليها مشروعه التأويلي لكثير من قضايا الشريعة، فعلم المعاملة ينقسم إلى ظاهر (أعمال الجوارح)، وباطن (أعمال القلوب)، وهي إما محمودة أو مذمومة.

وفق هذا التقسيم المحوري الذي يتصور علوم الشريعة تصورا منهجيا تقابليا، سيسير الغزالي في تأليف كتابه، وسنجد له مستويات وعناصر فرعية كثيرة فيما بعد، وكلها نابعة من تصور نسقي للموضوع ولأسلوب الكتابة، ومعرفة حقيقية بمراتب القراء والمخاطبين بالكتاب. ولهذا تجنب في كثير من الأحيان الخوض في علوم المكاشفة، لأنه من فهم الخاصة وخاصة الخاصة، وكما يقول ابن خلدون: "إنها رعاية الأدب في البواطن والظاهر، ثم لما أقبلوا على مراعاة بواطنهم، وتوغلوا في تخليص قلوبهم وحفظ أسرارهم، حصلت فيها التصفية، فأشرقت أنوار العلم الإلهامي... إنه ناشئ عن التصفية، وارتفع الحجاب فحصلت المكاشفة، ثم وقعت المشاهدة لمن تمكن في مقامات سلوكه، وبلغ الغاية من صفاء قلبه، فسمت همة الكثير منهم إلى تجاوز هذه المراتب كلها إلى المشاهدة التي هي إكسير السعادة العظمى في الآخرة،

وهي النظر إلى وجه الله الكريم"[5]. وقد تميز تصوف الإمام الغزالي كما تميز تصوف كما أشار إلى ذلك الكثيرون بالاعتدال، وعدم الانحراف، فلا حلول فيه ولا اتحاد ولا وحدة ولا شطح[6].

يتأسس المشروع الإحيائي في الإحياء على علمين متقابلين تقابل تكامل، حيث يفضي اكتمال علم المعاملة القائم على المجاهدات، والرياضات إلى علم المكاشفات وعلم البواطن الذي به تنكشف أسرار الوجود علوه وسفله، وتتضح للعالم المتصوف معاني العلوم والصنائع، وتنحل جميع الشكوك والشبه، وتنكشف له ضمائر القلوب، ومعاني المتشابهات في الشرع[7].

وقد تطرق باحثون كثيرون قديما وحديثا إلى كتابات الغزالي، وتناولوها من مستويات عدة، ونحب أن نعيد قراءة هذه التجربة الفريدة في التأليف من زاوية تأويلية وتقابلية، لنبين الآليات المتعاونة والمتساندة في خطابة الإقناعي، وفي بحثه عن الحقيقة اليقينية بعقله وقلبه معا.

من أهم الملامح المنهجية في كتاب الإحياء اعتماد العقل والاستدلال، وطريق الذوق والحال، غير أنه استدلال يتخذ طابعا تقابليا في كثير من الأحيان، ويظل طابعا حاضرا بقوة في تناول العديد من الظواهر والقضايا. ولذلك اتخذ كتابه طابعا منهجيا دقيقا، وظهر فيه الغزالي مفكرا منهجيا، وكاتبا منهجيا. غير أنه من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن المنحى الصوفي حاضر بقوة في الكتاب، لأنه في نظره الطريق الذي يؤدي إلى المعرفة والحقيقة اليقينية. قال: "علمت يقينا

(5) ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، تقديم أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ط)، 1991، ص.192.

(6) المهدلي محمد عقيل بن علي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت للوصول إلى الحقيقة، دار الحديث، القاهرة، ط.2، 1985، ص. 332.

(7) ابن خلدون، شفاء السائل، ص.208.

أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق...فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة"[8].

تأويلية الغزالي

ترتكز تأويلية الغزالي للشريعة الإسلامية على التصوف، والمقصود هنا بالتأويلية هي هذا النزوع الممتد في الإحياء وغيره من كتابات الغزالي لمحاولة البحث عن معاني الشريعة وأسرارها ومقاصدها، إذ القصد بالتأويل هو الرجوع والعودة إلى أصل الشيء، والخفايا الدقيقة والمعاني والمقاصد الباطنية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية. إنها بحث عميق يحاول عن طريق العقل والاستدلال والكشف والمعرفة الذوقية إجلاء المقاصد، وإيصالها إلى الآخرين.وسبيل ذلك هو العمليات قبل النظريات؛فالزهد يؤدي إلى تجريد القلب، وذلك مطلع الفهم،وإذا صفا الفهم فهو العلم المؤدي إلى عمل القلوب، وهو باب فهم غوامض الأسرار. قال السهروردي: "فللصوفي بكمال الزهد في الدنيا، وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد، ففهمهم يدعو إلى العمل، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب، فمن الفهم علم، ومن العلم عمل، والعلم والعمل يتناوبان فيه، وهذا العمل آنفا إنما هو عمل القلوب، وعمل القلوب غير عمل القالب"[9].

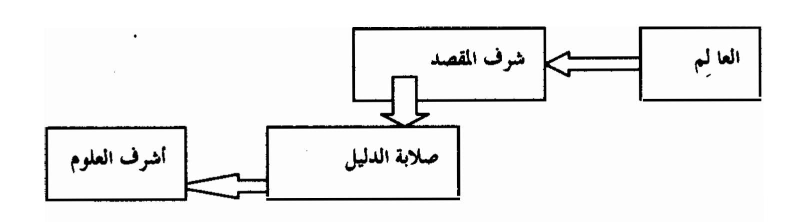
بهذه الرؤية العميقة وهذا التصور الناضج باشر الغزالي تأويله للشريعة، في بحثه عن معاني الحقائق التي تحتملها والتي لا تخرج عن روح الكتاب والسنة.لأن التصوف عند أربابه يروم الخروج من كل

(8) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.1، ص.12.

(9) السهرودي، عوارف المعارف، دار إحياء التراث العربي، ملحق الإحياء، ص.50.

خُلق دنيء والدخول في كل خلق سني. والصوفي كما يقول السهروردي: "يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة"[10].

لا بد للعالِم في تصور الغزالي أن يقطع علائقه من الاشتغال بالدنيا، لأن العلائق صارفة وشاغلة، ولا ينال العلم إلا بشرف المقاصد والدليل الصلب:



إن الوجود المعرفي الذي يتأسس عليه تأليف **الإحياء** وجود تقابلي في إدراك الغزالي، وهو تقابل ذو قطبين: قطب مُبَلغ صاحبه النجاة، والآخر غير مبلغ. ثم يتوسع في هذا التقابل الأساس بحثا عن المعاني الباطنية في كل أمر ديني، وهو تقابل تأويلي مستنده القلب والأدلة العقلية والشروحات والتفصيلات التي يفتح بها باب الفهم. والجدير بالذكر - هنا - أن الغزالي لا يستعمل مفهوم التقابل في كتابه، وإنما هو مستخلص من ملاحظات دقيقة لبنية الخطاب، فهو إذًا مفهوم اتخذناه مدخلا لمقاربة مظاهر الاشتغال بالتأليف عند صاحب "الإحياء".

إن التأويل بمفهومه الواسع هو كل عملية قائمة على الإدراك والتمثل تهدف إلى بناء المعنى، عبر تجاوز الظواهر نحو البواطن، إنه عملية مرفقة بالدليل الشرعي أو المنطقي أو النقلي. وهو عند الغزالي مبني على مقاصد الشريعة وروحها[11] وجواهرها وغاياتها، ومحكوم بالتصور الباطني وأدواته الإقناعية والتفهيمية. وهكذا حاول الغزالي

(10) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج.1، ص.62.

(11) نفسه، ج.1، ص. 213.

في كل باب استكشاف المعاني الباطنية لكل عبادة، باحثا عن أسرارها وأسرار تشريعها، وما في ذلك من معان خفية. غير أن الكتاب لا يكتفي بهذا الجانب التأويلي، بل يقدم للقارئ مادة معرفية وفقهية غزيرة، ولا يقف عند هذا الحد بل يبحث في نهاية المادة الفقهية عن دقائق الآداب. يقول عن الزكاة: "مع أنها تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاثة معان؛ الأول..."، وقال في إخفاء الصدقة وإظهارها: "أما الإخفاء ففيه خمسة معان...أما الإظهار والتحدث ففيه معان أربعة.."[12]، "فإذا عرفت هذه المعاني..."[13]، "ورقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع...."[14].

تتأسس خطة الغزالي على تأويل معاني العبادات التي جاءت بها الشريعة، وهو ما يمكن تسميته بعلم تأويل معاني الشريعة. ولذلك نجده يُعَنْوِن كتبه بأسرار كذا، مثل "أسرار الصوم"، قال: في الصوم معنيان: أحدهما: كَفٌّ وترك، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يُشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد"[15].

بوسع القارئ المتمعن أن يكتشف الإضافات الهامة التي قدمها الغزالي في تأويله للشريعة، وتبيان أسرار العبادات ومعانيها ومقاصدها. وتكمن في خضم عمله نظرية شاملة للمعنى تشكلت عبر إجراءات تأويلية مختلفة، وهي التي يمكن أن تستقصيها دراسة الخطاب ومقاربة بناء المعاني في كتابه "الإحياء". كما أنه بالإمكان الوقوف عند آلياتها

(12) المصدر السابق، ج.1، ص.227.

(13) نفسه، ص.228.

(14) نفسه، ص.229.

(15) نفسه، ص. 231.

البانية للمعنى والتي تتساند فيما بينها.

ويجب أن لا يفهم من هذا أن الكتاب عبارة أن اشتغال تأويلي باطني، بل هو في أجزاء كثيرة منه كتاب تعليمي يقدم زادا معرفيا غنيا عن العبادات، وأنواعها وعناصرها الدقيقة، خاصة وأنه يضع في اعتباره المتلقي العادي الباحث عن المعرفة بالدين والشريعة. وفي ثنايا الخطاب نجد باستمرار تغييرا في وتيرة الخطاب، لإقناع المتلقي الناكر المخالف للغزالي في التصور والمذهب، لذلك فهو يتوجه إليه عبر الأدلة والحجج.

إن التصوف عند الغزالي لا يقتصر على الترقي بالنفس عبر رياضات معينة، تولد الشعور بالفناء في الحقيقة الأسمى والعرفان بها، وإنما هو تصوف تأويلي يعبر عن الحقائق الذوقية ويعبرها. فلم يقبل الغزالي من التصوف إلا ما كان متماشيا مع السنة راميا إلى الزهد وتهذيب النفس، وقد رفض الفلسفة لأنها ليست طريقا إلى اليقين. وهو ينتمي فقهيا إلى الشافعية، وكلاميا إلى الأشعرية، ولا يزال إلى يومنا هذا صاحب أفكار حية[16]. ويُعتبر كتاب "الإحياء" كتاب في علوم الدين،وقد فصل الكلام في أنواع المعاملات بشكل علمي وفقهي، إن الغزالي بعمله الضخم هذا "قدم زادا تأويليا للشريعة ذا قيمة عالية فيه تفصيلات لا تصدر إلا عن عالم كبير متورع ومجتهد"[17].

لا يختلف الباحثون على القيمة النوعية والكمية التي أحدثها الغزالي في الثقافة الإسلامية، فقد أسس نموذجا معرفيا ومنهجيا واستدلاليا يعز نظيره، وظل حاضرا بقوة في الفكر العربي الإسلامي. هذا الحضور "دليل على أنه لم يكن واحدا من أعلامه البارزين، بل

(16) التفتازاني أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.3، 1979، ص.159.

(17) نفسه، ص. 161.

برهـان علـى أنـه كان وما يزال أحد مكوناته، وإحدى سـلطاته المرجعية التي لم تشخ بعد"[18].

إن تأويل الغزالي لروح الشـريعة قائم على مقارنة أفعال الإنسـان التـي يبغـي بهـا كمالـه عند الناس، وبين أفعاله التـي يرتضي بها الكمال عنـد الخالـق، وهـذا إجراء حاضر على طـول الكتاب. كما أنه لا يعالج الأمـور علـى أنهـا مقام واحد، وإنمـا مجموعة من المراتب والدرجات، وهي مقاربة لا تتأتى إلا لمؤَوِّل عارف بدقائق الشريعة، له عقل عارف وقادر على إيجاد مثل هذه التقـيمات وإبراز الفروقات بينها.

لقد نال الغزالي بطريقته وتصوراته، وعمق معانيه وحسن تقـيماته إعجاب الناس قديما وحديثا.قال عنه تاج الدين السبكي: "حجة الإسلام وحجـة الديـن التـي يتوصـل بها إلى دار السـلام، جامع أشـتات العلوم والمبـرز فـي المنقـول منهـا والمفهوم....أخمد من نيـران البدائع كل ما تـسـتطيع أيدي المجالدين مسـها.....جاء والناس إلى رد فرية الفلاسـفة أحـوج مـن الظلمـاء لمصابيـح السـماء، وأفقر من الجدبـاء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيف بحلاوة مقاله، ويحمي حوزة الديـن، ولا يلطـخ بـدم المعتديـن حـد نصالـه حتى أصبـح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات"[19].

وقد أثنى على كتاب الإحياء عدد كبير من العلماء والعارفين بالله وبعلـوم الديـن. قال العيدروس:"اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى، بل كل فضيلة باعتبار حيثياتها لا تُـستقصى، جمع الناس مناقبه فقصروا وما

---

(18) محمـد عابـد الجابـري، "مكونات فكر الغزالي" ضمـن كتاب: "أبو حامد الغزالي: دراسـات فـي فكـره وعصـره وتأثيـره"، منشـورات كليـة الآداب، الربـاط، 1988، ص.59.

(19) تـاج الديـن الـسكي، طبقـات الشـافعية، المطبعـة الحسـنية، مصـر (د.ت)، ج.4، ص.101.

قصـروا، وغـاب عنهـم أكثر ممـا أبصروا، وعز من أفرادهـا فيما علمت بتأليـف، وهـي جديـرة بالتصـنيـف، غـاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق، واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكبارها..."[20]. وقال فيـه الإمـام أبـو الفضـل العراقي: "إنه من أجَلِّ كتب الإسـلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سـرائر دقت عـن الأفهـام، لـم يقتصـر فيه على مجـرد الفروع والمسـائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه عِلمي الظاهر والباطن، ومزج معانيهما في أحسن المواطن..."[21].

وقال عبد الواحد الفارسـي: "إنه من التصانيف المشـهورة التي لم يسبق إليها"[22]. ويلخص كل ذلك قول الشيخ أبو محمد الكارزوني: "لو مُحيت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء"[23].

لقـد أدرك كثيـر مـن القدماء أن كتاب "الإحياء" عبارة عن توضيح وشـرح للشـريعة الإسـلامية في كافة مناحيها. قال عبد الله العيدروس: "عليكـم يـا إخوانـي بمتابعة الكتاب والسـنة، أعني الشـريعة المشـروحة في الكتب الغزالية....."[24]. إن في كتاب "الإحياء" سـرا عجيبا يجذب القراء، حتى قالوا: لو قَلَبَ أوراق الإحياء كافر لأسلم. والحال أن دورنا اليوم ليس هو تكرير أقْوال السلف، وتجميعها، وإنما البحث عن بعض أسرار جاذبية هذا الكتاب وتأثيره القوي ليس في الأفراد وإعجابهم به، بل على مستوى الثقافة العربية الإسلامية ككل.

بلغ الغزالي مرتبة كبيرة في العلم، حتى شدت إليه الرحال، وأذعنت

(20) عبـد القـادر العيـدروس، تعريف الأحياء بفضائل الإحياء،ملحق إحياء علوم الدين، م.م، ص.3.

(21) نفسه،ص.5.

(22) نفسه، ص.5.

(23) نفسه، ص.5.

(24) نفسه، ص.5.

لـه الرجـال، لكنـه طرح الدنيا وطلـب الآخرة. قال بعض العلماء: رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة وبيده عكاز ورَكْوَة، فقلت له: يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلي شزرا وقال: لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شموس الوصل:

تركـتُ هـوى ليلـى وسـعدى بمنـزل
وعُـدْت إلـى مصحـوب أول منـزل
ونـادتـنـي الأشـواق مـهـلا فهـذه
منـازل مـن تهـوى رويـدك فانـزل[25]

حقـق الغزالـي فـي "الإحيـاء" تجربة فريـدة في التأليـف، تعكس مستوى الرقـي المعرفـي والمنهجـي الـذي تحصَّـل عنـده، وكل ذلك ثمـرة تحـولات معرفية وصراعات فكريـة ومذهبية عرفها عصره، حيث استطاع بعد الاطلاع عليها وتمحيصها اختيار الطريق الذي يراه صائبا؛ ولذلك فالقيمة الحقيقية للإحياء لا تـنحصر في المواد المعرفية والفقهية المعروضـة فيـه، وإنمـا كذلـك فـي الرؤيـة التي تحكمت فـي صياغته، والحس المنهجي والذوقي الذي خضعت له، وكذا المستوى التنظيمي والتنسيقي الـذي اتَّبعـه فـي كل أبـواب الكتـاب، عبر معالجـة القضايا والموضوعات على شـكل مراتب ودرجات. وهو اشـتغال بالتأليف لا يتأتى إلا لمؤَوِّل عارف بالشريعة، قادر على إيجاد مثل هذه التقسيمات وإبراز الفروق بينها.

إن قـارئ كتـاب الإحيـاء يجـده صالحـا لـكل زمان ومـكان، فهو وإن كان يتوجه في محافل منه إلى الذين عايشـوا الغزالي وخالفوه في المذهـب والتصـور، إلا أنـه فـي عمومه موجه إلـى كل القراء. ومن ثمة يجد نفسـه معنيا بكل كلمة في الكتاب، وذلك لأن المؤلف اسـتند إلى

(25) المصدر السابق، ص.12.

روح الشريعة ومبادئها ومقاصدها، وهي صالحة للناس في كل زمان ومكان.كما أن تحليل النفس البشرية دقيق للغاية، وهو ما يمكّن كل أحد من معرفة نفسه ومعرفة غيره.

الدنيا مزرعة الآخرة

من الواضح أن الغزالي تحكمت فيه مرجعيته الصوفية، وإيمانه بأن طريق التصوف هي أفضل الطرق في تحصيل المعرفة على الإطلاق، وهو النسق الخفي والظاهر الذي وظفه الغزالي لإحياء علوم الدين وتجديدها تجديدا يلائم العصر. ونقدم بعض المقتطفات الممثلة لهذا التحكم، وإلا فإنها حاضرة بقوة في كل فقرات الكتاب: "بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك، فصار ذلك حجابا بينك وبينها، فلا تحتاج إلا أن تكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب"[26]. وفي باب الزهد نقرأ "ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخرا مثل البهيمة، مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى؛ فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا، وينال الربوبية بأن يصير عبدا"[27].

إن المشروع التأويلي للغزالي قائم على أن "الدنيا مزرعة الآخرة"، فهي المحور الذي تؤول على ضوئه كل القضايا التي يعالجها، وأن "ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات

(26) الإحياء، م.م، ج.4، ص.77.

(27) نفسه، ج.4، ص.79.

له"[28]. وسنحاول فيما يلي تتبع جوانب من اشتغال الغزالي اعتمادا على إبراز التقابلات والتمثيلات.

التقابل وصناعة المثال

يعتبر التقابل التمثيلي من العناصر الاستدلالية البليغة التي ضمنت لكتابات الغزالي قوة حجاجية وإقناعية، وهي خطة نهجها الغزالي على طول مؤلفه، وفي غيره من الكتب. ولعل الذي يشد القارئ إلى تأليفاته هو تصور العالم الدنيوي والأخروي بهذا الشكل المتقابل، وهو دليل على إدراك وتمثل حقيقي للمعاني والأفكار،بل لعله كان مدركا غاية الإدراك أن تقديم تصوراته يجب أن يكون واضحا وجليا ومقنعا، فأدرك بسعة اطلاعه على علوم المنطق وعلم الكلام والفلسفة أن الوسيلة الأمثل لذلك هي تأسيس مشروعه على أساس تقابلي. وهو- بالطبع- لا يصرح بذلك لكن القارئ المتمعن يدرك أن وراء هذا الخطاب المثير والجذاب سرا ما، أداة ما لإيصال المعاني. ولقد تناولت كتابات عديدة مناحي فكر الغزالي، غير أني لم أجد من بينها من حاول اكتشاف سر صناعة الخطاب عنده، وسنقدم نماذج تمثيلية على ما نقول.يقول:

"في القلب جنود،جند يُرى بالأبصار، وجند لا يُرى إلا بالبصائر، ويتمثل الجند المشاهد في اليد والرجل واللسان والعين، فهي كلها مسخرة للملك الذي هو القلب،وهو يفتقر لها من أجل سفره الذي خلق من أجله، وهو السفر إلى الله تعالى وقطع المنزل الأدنى (الدنيا) لأجل الوصول للمنزل الأقصى (الآخرة)،ولا بد له في سفره من البدن، والبدن مفتقر إلى الغذاء وغيره من أسباب البقاء، ولذلك افتقر هذا البدن إلى جندين ظاهر:الأعضاء الجالبة للغذاء كاليد، وباطن: وهو الشهوة؛ فالأعضاء آلات الشهوات،ولدفع المهلكات افتقر البدن إلى جندين

(28) الإحياء، م.م، ج. 3، ص288.

ظاهر:الأعضاء الدافعة للأذى: اليد والرجل....وباطن وهو الغضب الذي ينتقم من عدو البدن"[29].

يسير الغزالي على هذا المنوال التوضيحي الذي يقوم على التصور التقابلي للعوالم والحالات، وهو تقابل تمثيلي وتعالقي حيث ترتبط الأشياء فيما بينها ارتباطا سببيا:

القلب	(مقابل)	الملك
الجنود	(مقابل)	الأعضاء المساعدة
العبادة	(مقابل)	السفر
سفر الدنيا	(مقابل)	السفر إلى الآخرة
جلب المنافع	(مقابل)	دفع المضار
العبادة تحتاج البدن	(مقابل)	السفر يحتاج السفينة
جند ظاهر	(مقابل)	جند باطن
الأعضاء خادمة	(مقابل)	القلب مخدوم (ملك)
جند ظاهر وخفي (الأعضاء والشهوة)	مقابل)	(جند ظاهر وخفي (الأعضاء والغضب)
الإدراك	(مقابل)	الجاسوس

يسير التأليف في كثير من الأحيان وفق هذا المنطق التقابلي التمثيلي بهدف التوضيح والتفهيم: "ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء، لكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم"[30].

من وظائف التقابل التمثيلي تعضيد خطة المؤلف في التأثير والإقناع، وتقريب المعاني من الأفهام بضروب من الأمثلة، لا يكتفي

(29) المصدر السابق، ص.5.

(30) نفسه، ص.6.

المؤلـف بمثـال واحـد فـي كثيـر مـن الأحيان، وإنمـا يراكـم الأمثلة في الموضوع الواحد لتتضح المعاني والتقابلات.ومن ذلك التمثيل التقابلي: (النفـس مقابـل الملك)، (البدن مقابل المدينة)، (الجوارح مقابل الصناع والعمـال)، (القـوة العقليـة مقابـل الوزير الناصح)، (الشـهوة مقابل العبد السيء)، (الغضب مقابل صاحب الشرطة)، (العبد مقابل كذاب خداع)، (العبـد ظاهـره النصـح مقابـل العبـد باطنه الشـر الهائل والسـم القاتل)، (منازعة العبد للوزير في أمور الحكم وحبس صاحب الشـرطة له مقابل تحكم الشـهوة في صاحبها حتى تتأدب بالعقل) . والمقطع التالي ناطق بمـا نقـول: "مَثَلُ نفس الإنسـان في بدنه أعنـي بالنفس اللطيفة المذكورة كمثـل ملـك فـي مدينتـه ومملكتـه فـإن البـدن مملكـة النفس وعالمهـا ومسـتقرها، وجوارحهـا وقواهـا بمنزلـة الصنـاع والعملة، والقـوة العقلية المفكرة له كالمشـير الناصح والوزير العاقل. والشـهوة له كالعبد السـوء يجلـب الطعـام والميـرة إلـى المدينـة. والحميـة والغضـب لـه كصاحب الشرطة، والعبد الجالب للميرة كذاب مكار مخادع خبيث، يتمثل بصورة الناصح تحت نصحه الشـر الهائل والسـم القاتل، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلا بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره، وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأنصاره، حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا، ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه، فهكذا النفس متـى اسـتعانت بالعقـل، وأُدبـت بحية الغضب، وسـلطتها على الشـهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلواءه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب عليها وتقبيح مقتضياته، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها..."[31]

---

(31) الإحياء،ج. 3،ص.ص.6-7.

يتبين إذًا أن التقابل التمثيلي أداة استدلالية وتأويلية، فهو استدلال للإقناع والتفهيم، وهو تأويل لما جاءت به الشريعة الإسلامية، وما ورد في النصوص القرآنية، خاصة وأن الغزالي ينطلق من آيات قرآنية أو يعضد بها المعاني والأسرار التي يعيد بناءها تأويليا.قال: "اعلم أن البدن كالمدينة والعقل-أعني المدرك-من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾، وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه الله تعالى"[32].

ينتقل التقابل التمثيلي إلى جهة أخرى من المعنى وهو البدن المهدد بعدو الشهوات، فيشبهه بالمدينة: (البدن مقابل المدينة)، (العقل مقابل الملك)، (القوى المدركة مقابل الجنود والأعوان)، (الأعضاء مقابل الرعية)، (الشهوة والغضب مقابل العدو المهاجم)، (مجاهدة العدو مقابل إهمال الثغر)، (الحفاظ على البدن مقابل الحفاظ على المدينة)، (سلامة العاقبة الدنيوية مقابل سلامة العاقبة الأخروية).

أبرزنا في مناسبات سابقة[33] كيف أن القول الشعري يتأسس على التقابل في صناعته وجوهره، ونحاول أن نبين هنا كيف أنه مكون

(32) المصدر نفسه،ج. 3،ص7.

(33) انظر محمد بازي، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم بيروت، ومنشورات الاختلاف والجزائر، الطبعة1، 2010. وكذا التقابل في الخطاب الشعري في هذا الكتاب: مرثية مالك بن الريب، والتقابل في الشعر الحديث نموذج عمر أبو ريشة.

جوهري تتأسس عليه الخطابات الفكرية والتأويلية باعتباره نسقا تعبيريا يظهر ويختفي، يحضر أو يغيب، لكنه يسكن التواصل وبناء المعاني. وبما أن أنظمة التواصل والاستدلال تنبني عليه، فمن اللازم إيلاءه الأهمية التي يستحقها حتى تتأتى معرفة أسراره وجمالياته، سواء على مستوى صناعة النصوص الأدبية والخطابات الفكرية والتحليلية، أو على مستوى تلقيها وتأويلها، وهو ما يدعمنا فيه الغزالي بقوله: "الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها"[34].

وإذا كان التقابل عنصرا تأليفيا خفيا يحضر بقوة في الإحياء فإننا نقدم مثالا آخر وهو التقابل الأخلاقي: الطبيعة الشيطانية مقابل الطبيعة الملائكية، ففي الطبيعة الشيطانية يكون العقل مملوكا والقلب مرآة يعلوها صدأ المعاصي: الرين، وأما في الطبيعة الملائكية فيكون العقل مالكا والقلب صقيل بنور الطاعات. ومن صفات الطبيعة الشيطانية: الخبث، الوقاحة، الرياء، المجانة، العبث، الحرص، الجشع، الملق، الحسد، التهور، الشماتة، البذخ، الصلف، التكبر، الاستهزاء، المكر... أما صفات الطبيعة الملائكية: العلم والشجاعة والحكمة، والكرم، والعفة، وضبط النفس، والحلم، والزهد، العفو، والورع، وحسن الهيئة، والثبات..

يشرح الغزالي الشريعة ويُؤَوِّلها حسب فهمه، لكنه يقدمها للآخرين عبر تقابلات موضحة؛ ولو بحثنا عن سر هذه التقسيمات الثنائية نجد أن مصدرها هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فقد بينت أن حال الإنسان في الدنيا والآخرة مبني بهذا الشكل الثنائي: الإيمان أو الكفر، السعادة والشقاء الدنيويان أو السعادة والشقاء الأخرويان. والغزالي يسير على هدى الشريعة في تقسيمها لصفات الإنسان ومصيره. وهكذا

(34) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.3، ص.27.

يحلل ميولات الإنسان إما إلى الخير أو الشر تحليلا تقابليا؛ فمحركات القلوب هي الخواطر: الأفكار والأذكار، فمنها ما يدعو إلى الخير ومنها ما يدعو إلى الشر، الخاطر المحمود يسمى إلهاما، والخاطر المذموم يسمى وسواسا،والسبب الداعي إلى الخير يسمى مَلكا، والداعي إلى الشر يسمى شيطانا، وتبعا لذلك تسير العلاقات بمنطق تقابلي وسببي كالتالي:

خواطر الإنسان		
الإلهام	(مقابل)	الوسواس
المَلك	(مقابل)	الشيطان
اللطف	(مقابل)	الإغواء
هَمٌّ من الله	(مقابل)	هَمٌّ من الشيطان
القلب مهبط الملائكة	(مقابل)	الهوى مرعى الشيطان
غلبة الآخرة على القلب	(مقابل)	غلبة الدنيا على القلب
ذكر الله مطرح الملائكة	(مقابل)	ذكر الشهوات مطرح الشياطين
عبيد الله	(مقابل)	عبيد الهوى
الهم: أهو لمَّة من الملَك؟	(مقابل)	أم لمة من الشيطان؟

والشيطان عدو لا يغفل ولا دَفْع له إلا بالحراسة والمجاهدة. ومثال القلب مثل الحصن، وحراسة الحصن تكمن في حفظ أبوابه وهي صفات الإنسان من شهوة وغضب، فإذا غضب الإنسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة. ومن أبوابه الحسد والحرص والجشع والطمع وحب التزين المفرط، والعجلة والمال والدواب.

سعى الغزالي في تأويليته للشريعة إلى بناء المعاني المتعلقة بالقضية التي يتناولها، فعمله إلى جانب كونه يقدم زادا معرفيا وفقهيا موسعا، فهو يسعى للإحاطة بمعاني الشريعة وأسرار عباداتها.وفيما يتعلق بالمهلكات والمنجيات يتوسل بعلم الآخرة الذي هو منطلقه ومقصوده، ومن ثمة فهو لا يشغل نفسه بالمعاني اللغوية للشكر أو الصبر أو غيرها، لأن ذلك في تصوره "ليس من علم الآخرة في شيء"[35]، ولأن مقصوده هو التفهيم والإفهام، والاستدلال على صحة ما يبنيه من معان ويتكشفه من أسرار، فهو معني بضرب المثال: "والفهم قاصر عن درك السر فيه، فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه"[36].والمثال -كما ذكرنا- نوع تقابل، لأنه تواجه استدلالي بين المشبه والمشبه به، وهي آلية استدلالية وحجاجية قوية انتفع بها الغزالي في صناعة بلاغة الخطاب، ونفع بها غيره.

يستند الغزالي إذًا على أمر خارجي عن الألفاظ، متجاوزا التناول المعجمي لمعاني ألفاظ العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات بأنواعها المختلفة.ذلك الأمر الكاشف عن الأسرار المعنوية هو النور الرباني، فبه يتأتى الوصول إلى الحقائق والأسرار.قال: "فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤَوَّلة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى"[37].

إن عبارة "الدنيا مزرعة الآخرة" التي يرددها الغزالي باستمرار، نفهم منها مقابلها وهو أن الآخرة حصاد لما زُرع في الدنيا. ونجد تقابلا

---

(35) الإحياء، ج.4، ص.85.

(36) نفسه، ص.85.

(37) نفسه، ص.106.

آخر في الموضوع نفسه، وهو أن الدنيا مرآة الآخرة، عالم الشهادة مقابل عالم الغيب، وهي أوضح تجل للتقابل الذي هو نوع مواجهة، بل نوع من التَّرائي الذي تضمنه المرآة؛ "كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة"[38].

ونقدم مثالا آخر للتقابل التمثيلي الذي تتأسس عليه بلاغة الخطاب عند الغزالي، وهو مثال الدنيا: "ما خُلِقَت الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتُخْدع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت، كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه، فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها، ولا ينبغي أن نقول إن المُعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها، فإن المقبل عليه أيضا متألم بالصبر عليها، وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة، وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة"[39].

الدنيا مثالها امرأة جميلة مثيرة تجذب المغترين بجمالها حتى إذا وقعوا في شباكها انصرفت عنهم وعذبتهم، وهم يطمحون إلى تحصيل لذة، وإذا تأتى ذلك فإنه لا يكتمل، فيعتوره النقص والألم، ونتاج الألم الدنيوي ألم أخروي.

بوسعنا أن نتوقف عند خاصية التقابل التمثيلي التي اعتمد عليها الغزالي في كتاباته، من خلال هذا المقطع السابق:

---

(38) المصدر نفسه، ص. 102.

(39) نفسه، ص. 126.

الدنيا	(مقابل)	امرأة
العقول الناقصة مغترة بالدنيا	(مقابل)	العقول الكاملة لا تغتر بالدنيا
الدنيا غاوية	(مقابل)	العقول الناقصة واقعة في الغواية
ظاهر الدنيا الرغبة والانقياد	(مقابل)	باطنها الاستعصاء والإعراض
العقل الناقص	(مقابل)	شاب شبق
الدنيا في راحة	(مقابل)	الإنسان المغتر بها في عذاب دائم
إذا غض الشاب البصر سلم	(مقابل)	إذا لم يغلق أبواب الفتنة تألم طول حياته
أرباب الدنيا	(مقابل)	أرباب الآخرة
المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها	(مقابل)	المقبل عليها متألم بالصبر عليها
تألم المعرض نتاجه اللذة في الآخرة	(مقابل)	تألم المقبل نتاجه تألم الآخرة

إن "إحياء" الغزالي يكشف عن أنواع متباينة من المعرفة، فلذلك يهتم بكل أصناف المتلقين، والبيان عنده إما أن يكون على سبيل التساهل[40]، عبر الخطاب الموجه إلى عامة الناس لقصور أفهامهم، والغرض منه الإصلاح. وأما النوع الثاني فهو الذي يتوجه به إلى أهل العلم والمستبصرين بحقائق الأمور عن طريق الكشف والإيضاح، ومن ثمة فهو يعتمد خطة التفهيم. وقد وردت كلمة "بيان" كثيرا في كتابه، وهو يقصد بها الإيضاح والتبيين والتفهيم، وإبراز الأمر على حقيقته وحاله، وهو البيان اشتغال ذهني يقوم على عمليات إدراكية وفكرية تأويلية تهدف إلى إرجاع معاني الشريعة إلى أصلها، وإظهار أسرارها

(40) الإحياء، ج.4، ص. 136.

وما انغلق من معانيها، وذلك في إطار مشروع تأويلي ومنهجي متكامل، إذ إن التأويل في الأصل هو إرجاع المعاني إلى أولها.

يرتكز تأويل الغزالي للشريعة على البحث عن معاني وأسرار الأطر الكبرى التي قسم إليها كتابه، ثم تتفرع عن كل إطار مجموعة من العناصر التي يخضعها بدورها لسؤال المعنى، وبيان وتبيين الأسرار الدقيقة، متبعا في ذلك نسقا منهجيا وتأليفيا دقيقا يسير عليه. قال: "الشطر الثاني من الكتاب في الخوف وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته، وبيان أقسام المخاوف، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء، وبيان دواء الخوف، وبيان معنى سوء الخاتمة، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم"[41].

ثم يتناول المؤلف في تأويله للفرعيات كل مسألة على حدة تبعا للمقامات التالية: العلم والحال والعمل؛ فحال الخوف ينتظم من علم وحال وعمل، وفي تحديد كل مستوى من مستويات التناول يقابل الغزالي بين الحالة موضوع التبيين والتوضيح وبين مقابل تمثيلي يعين على إجلاء المسألة وتوضيحها، وهي خطة بيانية محورية في التأليف والاستدلال عنده، فهو يؤمن غاية الإيمان بدور المثال وأثره، وغالبا ما يختار من المثالات ما يكون قريبا واضحا. يقول في باب الخوف: "كمن جنى على مَلِك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويُجَوِّز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو تفاحش جنايته، وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام، خاليا عمن يتشفع إليه في حقه... وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف، بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته...فالسبب الباعث المثير لإحراق

---

(41) الإحياء،ج.4،ص.155.

القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف...فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعا..."[42]

المِثال ومِثاله

يبتدئ الغزالي في خطته الإقناعية والاستدلالية من المعروفات والمعلومات عند المتلقين، فيقدم المثال الواضح البين الذي لا ينكره عقل أو عُرف، ثم يؤسس عليه مثاله الذي يسعى إلى تثبيته في قلب المخاطبين. إن المثال ومثاله، أو الحجة المركبة تركيبا تقابليا خاصية ملازمة لتناول الشريعة في "الإحياء"، وهو تناول تأويلي يقيم المعاني والمقاصد والغايات ويكتشف الأسرار والبواطن. وهكذا فالمثال الأول -وهو يتعلق بتوضيح مقام العلم بأسباب الخوف- ينطلق من توضيح النظريات، ويبني عليها ما يحتبع من الأحوال الواقية والمقامات المتعلقة بالخوف من الله تعالى، أي إنه انتقال من العموميات: حال الدنيا وأهلها (الأحوال الشاهدة) ثم ينتقل إلى حال العبد من ربه (الأحوال الغائبة).

الجاني على ملك يخاف العقاب (مقابل) الجاني للمعاصي يخاف الله.الخوف من الأسد لصفة السبعية فيه (مقابل) الخوف من الله لامتلاك الله تعالى القدرة على إهلاك الخلق لو أراد.ثم الخوف من المخوف لصفة قائمة فيه-الإحراق أو الإغراق- (مقابل) الخوف من الله لقدرته على كل ذلك.

إن خاصية التقابل التي يتأسس عليها العالم الذي نعيش فيه، يجد عند الغزالي طريقا صحيحة إلى توظيفه واستغلاله بشكل منهجي قوي،

(42) المصدر نفسه، ج.4، ص. 155.

وأحيانا يأتي بشكل مركب: (المسألة/ مثالها) .ثم يأتي بعد ذلك نوع آخر من التقابل وهو الاستشهادات القرآنية والحديثية، فهي نصوص تقابل قضايا أو معان تَمَّ بناؤها واستخراجها،وهي خطة تقابلية حاضرة على طول الكتاب.

وهكذا فالمشروع التأويلي للشريعة عند الغزالي يتأسس على بنية من المتقابلات، القائمة في بنائها على التأمل والاعتبار، أو على الاقتباس من الآيات والأخبار.ومن يقرأ ما تضمنه "الإحياء" يجد أنه صالح لكل زمان ومكان، فهو لم يؤلَّف ليقرأ في القرن الخامس أو السادس وحدهما، وإنما يجد كل قارئ أنه معني بكل كلمة فيه، وذلك لأنه استند إلى روح الشريعة ومبادئها ومقاصدها الصالحة لكل زمان ومكان. كما أن تحليل الغزالي للنفس البشرية دقيق للغاية، وما من قارئ يطلع على مضامين الكتاب إلا وسيجد أنه معني بالخطاب في كل مسألة، بل إن الكتاب يمكِّنه من معرفة نفسه بشكل جيد. وبما أن التأويل هو بحث عن المعنى، فالكتاب يظل على طوله كتاب استكشافا لمعاني الشريعة الخفية وأسرارها العميقة.

لقد برع الغزالي في صناعة أمثلته التبيينية لإدراكه أهميتها في الإقناع والتأثير، وهو يتحدث عن القضية ثم يأتي بمقابلها ومثالها، أو يأتي بالمثال أولا، ويردفه بالممثَّل له كما في الفقرة التالية: "وبالجملة فمن وقعت سفينته من لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة، واضطربت عليه الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر"[43]. إن استخدام المثال، ومقابلة الأحوال فيما بينها من الخصائص التأليفية ذات الحضور القوي عند الغزالي، والمثالات التي يقدمها مألوفة عند المتلقي وقريبة إليه، بل في منتهى الإدراك.

(43) الإحياء، ج.4، ص.178.

تساند الآليات التأويلية

تتعاون في منهجية الغزالي التأليفية مجموعة من الأدوات والآليات والعلوم، وإن حضر بعضها بشكل أقوى من الآخر؛ فالمتمعن في تشكلات الخطاب يجد أن العلوم والمرجعيات تشتغل بشكل تساندي، وتدفع كلها نحو مقصد مركزي، وهو تغيير وضع المتلقي نحو الكمال الذي ارتضته الشريعة له،وتبصيره بأحوال نفسه، ودفعه دفعا إلى مجاهدتها، وفتح تصوراته على عالم الآخرة، ولذلك فالعلوم في الإحياء يكمل بعضها بعضا.

وهكذا تتداخل في ثنايا الخطاب الاستدلالي في الإحياء النصوص القرآنية والحديثية، وأقوال الصحابة والعلماء والعارفين، والأمثال والأشعار والروايات والفقه والمنطق واللغة والإشارات الصوفية والوقائع والأخبار.يخضع الغزالي المادة الاستدلالية التي يدخلها في نسيج تأليفه للانتقاء والاختيار، فحضورها مبرَّر بقوتها الإقناعية والتأثيرية، وكذا المناسبة لمقام الحديث وموضوع التأليف. وهو ما يضفي على الأسلوب طابع التنوع والغنى. وبقدر ما يختار القارئ المادة المعرفية التي تناسب التصور الذي يدافع عنه: الدنيا مزرعة الآخرة، فإنه يشرك هذا القارئ، ويحاوره (اعلم أن...قيل...فكما أن....لعلك تقول...فإن قلت...) وهي إستراتيجية تستحضر القارئ بمختلف مراتبه المعرفية وتوجهاته العقدية والمذهبية لإقناعه وبث الروح الأخروية فيه.

كما أن الكتاب ينهض على مجموعة من الخصائص المنهجية الدقيقة التي تبين عن رسوخ قدمه في التأليف، فتناوله لموضوع معين يخضع للتقديم والشرح والتصنيف والتحليل والاستنتاج. وتتخلل ذلك عناصر أخرى مدعمة مثل الحوار، والاستطرادات الذكية والمشوقة، وحسن التقسيم، وجمال اللغة والأسلوب، ووضوح الفكرة والتعبير عنها بلغة لا تعقيد فيها، وأسلوب السخرية أحيانا، وتكرير الفكرة، والإكثار

من التمثيلات، وإبراز المظاهر المتقابلة في الكون والحياة والدين. وهو في كل ذلك موجه بمنهجه الصوفي ومقصده الكبير وهو إعداد الفرد إعدادا كاملا، وإصلاح المجتمع إصلاحا بنيويا، والوصول بهما إلى إدراك حقائق الوجود والحياة والموت والدنيا والآخرة ومصير كل واحد: الجنة أو النار، إذ السعادة في تصوره منوطة بحرفين: أحدهما أن يعرف العبد الله تعالى، والثاني أن يعرف خطابه إليه فيعمل به، وهذه الخلال حاضرة في هذا الكتاب، ومسدودة بأقفال التحقيق.

إن تأويلية الغزالي للشريعة قائمة على مقابلة أفعال الإنسان التي يبغي بها كماله عند الناس، وبين أفعاله التي يرتضي بها الكمال عند الخالق، وهو نفَس في التأليف يصدر عنه الغزالي في تأويله لعدد من الأحوال. وتظل المقاربة بالتقابل التمثيلي من أبرز السمات التحليلية والتأويلية حضورا. يقول في باب الرياء: "ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متكئا، فدخل غلامه فاستوى فأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة، وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة"[44]. لقد حرص الغزالي على الإيضاح والتفهيم والتأثير، وقد سمحت له ثقافته المنطقية ومرجعياته المعرفية المتنوعة بتناول كل باب من أبواب الكتاب تناولا تأويليا دقيقا قائما على ثنائية الظاهر والباطن، ومعالجة الأسباب الظاهرة والخفية لكل مسألة.

غير أن استدلالات الغزالي بالحديث الشريف لم يخضعها للتمحيص، ولذلك انتقده المنتقدون باعتماده أحاديث موضوعة، وقد اعتذر عن ذلك قائلا إن بضاعته في هذا العلم مزجاة.ولذلك قام الإمام زين الدين العراقي بتخريج الأحاديث الواردة في الإحياء على هامشه سماه "المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء

---

(44) الإحياء، ج.3، ص.305.

من الأخبار"[45].

ورغم طول مدة تأليف الكتاب التي تقدر بعشر سنوات، وما قد يعتري العمل التأليفي فيها من توقفات وانقطاعات، أو تغير في التصورات الكلية أو الجزئية فإن تأويل الشريعة في الكتاب يظل متماسكا ومتلاحما، لا تعارض فيه ولا تناقض مع المقصد من تأليفه أو مرجعياته.والكتاب كله ينم عن ذوق كبير، وامتلاك واسع لأدوات المعرفة ومناهج التأليف،من حيث العمق والانتظام والبلوغ إلى مقاصد الكتابة وإلى قلوب القراء.

والحقيقة التي لا بد من الإقرار بها أن الغزالي استطاع أن يغير فلسفة الكثيرين ونظرتهم إلى الكون والحياة، وأن يدمجهم في أفقه المعرفي. والأهم من ذلك أن كتابه يقدم توجها حقيقيا للتعامل مع الحياة والناس ومظاهر الكون تعاملا باطنيا ينظر في اللب، حيث يبين أن كثيرا من المظاهر التي تغتر بها القلوب خداعة في اللب. وهو تصور معرفي يعيد النظر في العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات؛ نظرة عميقة يخرج منها القارئ بتصور واضح، ويعود ذلك إلى أن الغزالي يمتلك قوة معرفية ومنهجية يشد بها القارئ، فهو يفيده ويمتعه، ويغير طريقة تعامله مع القيم والأخلاق ومظاهر الكون من حوله.

مثال الدنيا

من الأمثلة التي تفيدنا في هذا المقام حول علاقة التأويل بالمثال المقابل،مثال الدنيا بالمرأة الفاتنة الغاوية. قال في مقدمة باب الزهد، وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات: "المجد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الضلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم

(45) انظر هوامش الإحياء.

قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال. وتمثل لمظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عُجنت من طينة الخزي وضُربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال،ثم لا تجتزئ معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها، فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل"[46].

يسعى الغزالي إلى التأثير في المتلقي بجميع الوسائل المتاحة له بما فيها بلاغة القول، ولعل العارف بجماليات التعبير العربي سيتبين له دقة التعبير، ووضوح العبارة، واعتماد التحسين البديعي من سجع وجناس، وألوان التقابل، والتشبيه، والتمثيل، ويسر التعبير عن مقاصده وإيجازها، إلى جانب تحكم نزوعه التصوفي العميق الذي يؤطر معالجته لأي مسألة دينية.

أسس الغزالي تأويليته للشريعة في كثير من المقامات على المثال، فهو عدته، واشتغاله التأويلي ذهاب بالمعنى إلى مآله أو أوَّله بعد إذابته

(46) الإحياء، ج.4، ص.189.

في صلب تصوراته، أما التمثيل فهو تصوير أو توصيف شيء بمقابل مماثل، فيتطابقا مثليا عند صاحب التوصيف، والمقصود به تجليته وتقريبه إلى المتلقي، وذلك هو إدراك الغزالي لأهمية المثال ودوره. قال: "الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق"[47].

وبوسعنا سيرا على مقاربتنا التقابلية، إقامة مجموعة من العوالم المتقابلة في المقطع الذي أوردناه:

(المُسبَّح له – الله تعالى (مقابل) الكون المسبِّح: الرمال والضلال والجبال)، (الخالق المزين العاصم (مقابل) الإنسان المخلوق)، (استحسان المخلص في عبوديته لحضرة الجلال (مقابل) استقباح واستثقال كل ما يصرف عن ذلك)، (الدنيا ظاهرها امرأة جميلة تختال (مقابل) باطن الدنيا عجوز شوهاء)، (الدنيا قناعها سحر واحتيال (مقابل) حقيقتها النصب)، (الدنيا امرأة تعد بالوصال (مقابل) المغرورون بها مخدوعون بوعودها)، (الوعد بالوصال تقييد (مقابل) الموعود مقيد)، (العارفون بها زهدوا فيها (مقابل) المغرورون تعلقوا بها)، (الإقبال على حضرة الجلال (مقابل) الإقبال على امرأة تختال)، (الوصال بحضرة الجلال لا انفصال فيه (مقابل) التعلق بالدنيا بلاء وعناء دون وصال)، (التعلق بالدنيا كمال وهمي (مقابل) التعلق بالله كمال حقيقي) .

تبين هذه التقابلات المستخلصة عن سر صناعة الخطاب في كتابات الغزالي، كما كشفنا ذلك في نماذج سابقة،ويبين هذا عن إدراك الغزالي لكيفيات ترتيب القول وتنسيقه وبثه، وأن خير أسباب الإيضاح هو التعبير عن المعاني والأفكار عبر مقابلاتها ومماثلاتها، وإيرادها على نسق تقابلي ممتع، وبعبارات أنيقة وأسلوب بديع. وهذا من أسرار تأويلية الغزالي البليغة للشريعة، وعنصر من عناصر إقبال الناس على كتبه وإن خالفوه في الاتجاهات والأقوال.

---

(47) الإحياء، ج.1، ص. 301.

خاتمة وتوصية

لـم يقـدم الغزالـي فـي إحيائه فقـط تأويلا لمظاهر الكون وأسـرار الشريعة، بل وجدناه مؤوِّلا للعديد من النصوص القرآنية والحديثية يبني معانيها ويربطها بسياق تناوله لمسألة دينية؛ قد تبين لنا أن مشروعه في الإحيـاء كان علـى درجـة عالية من الـسبك المنهجـي، والغنى المعرفي والتأنق الأسلوبي واللغوي، والقوة الاستدلالية والحجاجية المتينة،وهي مواصفـات تأليفيـة يجدهـا القـارئ فـي كتـب الغزالي الغزيرة، وحسـبنا الإشـارة إلـى هـذا، مع ما شـغلنا أساسـا في هـذا المقال وهـو التأويلية التقابليـة التـي تحضـر على طـول الإحياء، وهي خاصيـة أخرى نضيفها إلـى مـا أَلِـف محللو الخطابات الإشـارة إليه، فقد بـرع الغزالي في بناء أفـكاره وتصوراتـه وحججـه بنـاء تقابليا منطقيا دقيقـا، مدفوعا في ذلك بالمتلقين الناكرين عليه أفكاره وتصوراته من جهة، وبالمتلقين العاديين الذين إلى يحتاجون إلى المثال، أو الأمر ومقابله حتى يتحقق لهم كمال الفهم والاقتناع.

وللمهتميـن بنظريـات التلقـي ومفاهيـم التأويل اليـوم أن يجتهدوا فـي اسـتخلاص المـادة الخـام مما تضمنته المصنفـات التراثية الكثيرة ؛ فما تضمنه الإحياء مثلا،وغيره من مؤلفات الغزالي يشـكل نظرية قائمة للتأويل النصي والسياقي، بل تأويل الكون والشريعة والوجود، وبالإمكان تتبـع كل القضايـا والاهتمامـات التـي تضعها نظريـات التلقي في صلب اهتماماتهـا مثـل مراتـب المتلقيـن، وبنـاء المعاني والافتـراض والتقدير والترجيح والفهم والدلالات والمساق والسياق وغيرها. ويستفاد من هذا أن التراث العربي الإسلامي وهو يحلل خرائط المعرفة الدينية والتصوفية والكلامية والفلسـفية تشـكلت داخله وموازاة مع ذلك تصورات جديرة بالاهتمـام والتتبـع، ثم وردت علينا مؤخرا من المباحث الأدبية والنقدية الغربية عبر الترجمات، والأولى إعادة تركيبها واسـتخلاصها من الأدبيات

العربيـة القديمة مثل التفاسـير والشـروح الشـعرية وعلـوم الفقه وأصول الفقه والفتاوى والمناظرات وكتب النقد الأدبي وتاريخ الأدب ومؤلفات الفلاسفة العرب، وغيرها.

الفصل الثالث

التقابلات النصية وأثرها في بلاغة الخطاب الشعري

مقاربة تأويلية تقابلية لمرثية مالك بن الريب التميمي

الشعر قول وإيحاء، بوح وإسرار؛ إنه حال من التعبير ينقلنا بين عالمين أو موضوعين، والقصائد الشعرية تبعا لذلك قابلة لأن تقرأ على مستويين اثنين، وإن كانت واضحة المعاني والدلالات: ما قيل (المعبر عنه) وما لم يقل (المسكوت عنه)، الظاهر والباطن، الذات والآخر، لأن الكتابة مرتبطة بالأحوال الذهنية والنفسية المتقابلة، فهي تنشأ وتترعرع في الفضاءات الدلالية لهذه العوالم المتقابلة، والوضعيات الثنائية.

عند بناء النص يستحضر الشاعر عناصر محددة ويبعد أخرى، بناء على المقاصد الباطنية التي تتحكم فيه. وبما أن الكتابة تُبنى، في الأصل،على الاقتصاد والاختزال فإن صانع النص يلجأ إلى الانتقاء، لأن مجال الكتابة محدود وآلياتها تستلزم الاختزال والإيحاء. ولذلك تتولى القراءة حل المعاني المكثفة وتوسيعها، منتحية بها مسارات شتى تعكس الاتجاه النقدي لمحلل النص، أو ميوله وفلسفته أو غير ذلك. وتعتبر آلية التأويل بالتقابلات بمستوياتها الكثيرة الممكنة من المنهجيات القرائية التي نرى أنها ذات فائدة كبرى في قراءة النصوص وإقرائها.

1 - النص [1]

أَلا لَيتَ شِعري هَلْ أَبيتَنَّ ليلةً

بِجَنب الغضى أُزْجي القِلاَصَ النَّواجِيا

فليت الغضى لم يَقْطَع الرَّكْبُ عَرْضَه

ولَيْتَ الغضى ماشى الرِّكابَ لَيالِيا

لَقَدْ كان في أَهْلِ الغضى لَوْ دنا الغَضى

مَزارٌ ولكن الغضى لَيْس دانيا

أَلَمْ ترني بِعْتُ الضَّلالةَ بالهُدى

وأَصْبَحْتُ في جَيش ابن عفان غازيا

وأصبحتُ في أرض الأعاديِّ بعدما

أراني عن أرض الأعاديِّ قاصيا

دعاني الهوى من أهل أُودَ وصُحبتي

بذي الطَّبَسينِ فالتفتُ ورائيا

أجبتُ الهوى لمَاً دعاني بِزَفْرَةٍ

تَقَنَّعْتُ منها أَنْ أُلامَ رِدائيا

أقولُ وقد حالَتْ قُرى الكُرد بَيْننا

جزى الله عَمْرًا خير ما كان جازيا

إنِ الله يُرجِعْني من الغزو لا أرى

وإن قَلَّ مالي طالبا ما ورائيا

(1) القالي أبو علي بن القاسم البغدادي، ذيل الأمالي والنوادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج.3، ط.1، ص.ص135-138. النص موجود كذلك في "العقد الفريد" لابن عبد ربه، تحقيق عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ط. 3، ج.3، ص.203. لكنه أقصر من نظيره في ذيل الأمالي مع اختلافات في الرواية.

تقـول ابنتـي لمـا رأتْ طـول رِحْلتــي
سِـفـارُك هـذا تاركــي لا أبـا ليـا

لعمـري لَئِـن غالــتْ خُراسـانُ هامَتـي
لقـد كنـتُ عـن بابَـيْ خُراســانَ نائيـا

فـإنْ أَنـجُ مـن بابـي خراسـان لا أعُــدْ
إليهـا وإِن مَنَّيْتموني الأمــانيـا

فلِلَّـه دَرِّي يـــوم أَتـرُكُ طائِعــا
بنـيَّ بأعلــى الرَّقْمَــتَيـنِ وماليـا

ودَرُّ الظبـاء السـانحات عَــشِيَّة
يُخَبِّـرن أَنِّـي هـــالـكٌ مَـنْ ورائيـا

ودَرُّ كبيـرَيَّ اللَّـــذَيـن كِلاهمـا
علـيَّ شَـفيقٌ ناصح لـو نهــانيـا

ودَرُّ الرِّجـال الشَّـاهدين تَفَتُّـكـي
بأمـري أن لا يقصـروا مـن وثـاقيـا

ودَرُّ الهـوى مـن حيـث يدعـو صحابتـي
ودَرُّ لجاجاتـي ودَرُّ انتهـــائيـا

تذكـرتُ مـن يبكـي علـيَّ فلــم أَجِـد
سـوى السـيف والرمـح الرُّدَيْنِـيِّ باكيـا

وأشـقرَ محبـــوكا يَجُـرُّ عِنانـه
إلـى المـاء لـم يتـرك لـه المـوتُ ســاقيا

ولكـن بأكنـافِ السُّـمَيْنَةِ نِسِـــوَةٌ
عزيـزٌ عليهِـنَّ العَــشِـيَّةَ مـا بيـا

صريـع ٌعلـى أيـدي الرِّجــال بِقَفْـرة
يُسـوُّون لحـــدي حيـثُ حُـم قضائيـا

ولما تراءت عند مَرْوٍ مَنيَّتي
وخَلَّ بها جِسْمي وحانت وَفاتيا
أقولُ لأصحابي ارْفعوني فإنه
يَقَرُّ بِعيني أنْ سُهَيلٌ بدا ليا
فيا صاحبيْ رَحْلي دنا الموتُ فانْزِلا
برابيةٍ إني مُقيمٌ لياليا
أقيما عليَّ اليومَ أو بعض ليلة
ولا تُعجلاني قد تَبَيَّن شانيا
وقوما إذا ما اسْتُلَّ روحي فهيِّئا
لي السِّدْر والأكفانَ عند فنائيا
وخُطَّا بأطرافِ الأسِنَّة مَضْجعي
ورُدَّا على عَيْنَيَّ فَضْل رِدائيا
ولا تَحْسُداني بارك الله فيكما
من الأرض ذات العَرْض أن توسعا ليا
خُذاني فَجُرَّاني بثوبي إليكما
فقد كنتُ قبل اليوم صعبًا قِياديا
وقد كنت عَطَّافا إذا الخيل أدبرت
سريعا لدى الهيجا إلى من دعانيا
وقد كنتُ صَبَّارا على القِرنِ في الوغى
وعنْ شتمي ابنَ العَمِّ والجارَ وانيا
فَطَوْرا تراني في ظِلالٍ ومَجْمَعٍ
وطَوْراً تراني والعِتاقُ رِكابيا
ويوما تراني في رحاً مستديرةٍ
تُخرِّق أطرافُ الرِّماح ثيابيا

وقوما على بِئْرِ السُّمينةِ أَسمِعا

بها الغُرَّ والبيضَ الحِسانَ الرَّوانِيا

بأَنَّكما خَلَّفْتُماني بِقفرةٍ

تَهِيلُ عليَّ الريحُ فيها السَّوافِيا

ولا تَنْسَيا عَهْدي خليلَيَّ بَعْدَما

تَقَطَّعُ أوصالي وتَبْلى عِظامِيا

ولَنْ يَعْدَمَ الوالونَ بَثًّا يُصيبهُم

ولن يَعْدَمَ الميراثَ مِنِّي المَواليا

يقولونَ لا تَبْعَدْ وهُم يَدْفِنونَني

وأين مكانُ البُعدِ إلاَّ مَكانيا

غداةَ غَدٍ يالهَفَ نَفْسي عَلى غَدٍ

إذا أَدْلجوا عَنِّي وأَصْبَحْتُ ثاويا

وأصبحَ مالي مِنْ طريفٍ وتالِدٍ

لغيري وكانَ المالُ بالأمْسِ ماليا

فيا ليت شِعْري هل تَغَيَّرتِ الرَّحا

رَحا المَثْلِ أو أمْسَتْ بِفَلْجٍ كما هيا

إِذا الحَيُّ حَلُّوها جميعا وأَنْزَلوا

بِها بَقَرًا حُمَّ العُيونِ سَواجِيا

رَعَيْنَ وقَدْ كادَ الظَّلام يُجِنُّها

يَسُفْنَ الخُزامى مَرَّةً والأَقاحِيا

وهَلْ أَتْرُكُ العيسَ العَواليَ بالضُّحى

بِرُكْبانِها تعلو المِتانَ الفَيافِيا

إذا عُصَبُ الرُّكْبانِ بينَ عُنَيْزة

وبَوْلانَ عاجوا المُبْقِيات النَّواجِيا

فيـا ليـتَ شـعري هـل بَكَـتْ أُمُّ مـالـك
كمـا كنـتُ لـو عالـوا نَعِيَّـكِ باكيـا
إذا مُـتُّ، فاعْتـادي القبـورَ وسَـلِّمـي
علـى الرَّمْـسِ أُسْـقِيتِ الـسحابَ الغَواديا
علـى جَـدَثٍ قـد جَرَّت الريـحُ فَوْقَـه
تُرابًـا كَـلَـوْن المَرْنَبانِـيِّ هابيـا
رهينـة أحجـارٍ وتُـربٍ تَضَمَّنَـتْ
قرارتُهـا مِنِّـي العِظـامَ البَواليـا
فيـا صاحبـا إمَّـا عَرَضْـتَ فَبَلِّغـا
بنـي مـازنٍ والرَّيْـب أَنْ لا تلاقيـا
وعَـرِّ قَلوصـي فـي الرِّكـابِ فَإِنَّهـا
سَتَفْلِقُ أكْبـادًا وتَبْكـي بَواكِيـا
وأَبصـرت نـار المازِنيَّـات مَـوْهِـنًـا
بِعَليـاءَ يُثْنـى دونهـا الـطَّـرْفُ رانيـا
بِعـودِ ألَنْجـوجٍ أضـاءَ وقُـودُهـا
مَهًـا فـي ظِـلال السِّـدْرِ حـورًا جَوازِيـا
غَريـبٌ بعيـدُ الـدَّارِ ثـاوٍ بِقَفْـرَةٍ
يَـدَ الدَّهـرِ مَعْروفـا بِـأَنْ لا تَدانِيـا
أُقَلِّـبُ طَرفـي حَـوْلَ رَحلـي فـلا أَرى
بـه مـن عُيـونِ المُؤْنِسـاتِ مُراعِيـا
وبالرَّمْـلِ مِنَّـا نِسْـوَةٌ لَـوْ شَـهِدْنَنـي
بَكَيْـنَ وفَدَّيْـنَ الطَّبيـبَ المُـداوِيـا

وما كان عَهْدُ الرَّمـلِ عِنْـدي وأَهْلِـه
ذَميمًـا ولا بِالرَّمْـلِ وَدَّعْـتُ قالِيـا
فَمِنْهُـنَّ أُمِّـي وابْنَتـايَ وخالَـتي
وباكِيَّـةٌ أُخْـرى تهَيـجُ البَواكِيـا

2 - مالك بن الريب

من الشعراء الصعاليك في أيام بني أمية، نشأ في بادية بني تميم. تَذْكر المصادر التي تناولت جانبا من حياته أنه كان شاعرا فاتكا لصا،كان يقطع الطريق هو ومجموعة من صحبه، منهم شظاظ وأبو حردبة وغويث...فتعقبهم مروان بن الحكم، وأوصى عامله على بني عمرو فقبضهم الأنصاري.وبينما هما كذلك تغفل مالك غلام الأنصاري وانتزع منه السيف وقتله وقتل الأنصاري، ثم فر إلى البحرين بعد تخليص صاحبه أبي حردبة[2].

انتقل مالك إلى فارس، وعندما استعمل معاوية بن أبي سفيان سعيدا بن عفان على خراسان سنة 56 هـ لقيه هناك، وكان مالك من أجمل الناس وجها، وأحسنهم ثيابا، وأفصحهم عبارة. فلما رآه أعجبه، فقال: مالك، ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق! وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل؟ ! قال: يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الإخوان.قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أَتكُفُّ عما كنت تفعل؟ قال: أي والله أيها الأمير أكف كفا لم يكف أحد أحسن منه. فاستصحبه، وأجرى له خمسمائة درهم[3].

---

(2) الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج.22، ص.290.

(3) نفسه، ص. 287.

أبلى مالك بلاء حسنا في حروب خراسان، وعند رجوعه مرض، فلما أشرف على الموت تخلف معه مُرَّة الكاتب ورجل آخر، ومات في منزله ذاك، فدفناه، وقبره هناك معروف[4]. وقال آخرون بل اعتل في غزو سعيد، فمات هناك، حيث ذكر مرضه في قصيدته، وهي من نفيس الشعر ومات في الطريق..، والله أعلم أي ذلك كان[5]. وشعره موزع في تضاعيف المصادر التاريخية والأدبية والنحوية، وهو يصور جوانب من حياته سواء في مرحلة التلصص والصعلكة، أو في مرحلة والصلاح[6].

3 - البلاد السالبة

يأتي مطلع النص حاملا لعدد من وجوه التقابل، محورها ذات الشاعر المتكلم الحاضر المحتضر، مقابل الآخر (المرأة) كما اعتاد الشعراء في مقدماتهم الطللية والغزلية. إن الحضور هنا نفي للغياب، ثم حضور رثاء الذات مقابل رثاء الغير، وهذا التمني الناطق بثنائية الامتلاك والافتقاد، امتلاك الغضى والمبيت فيه كما كان حاصلا في الماضي، مقابل العجز عن تحقيق تلك الإمكانيات في الزمن الحاضر- زمن القول- وهو زمن ذوبان الحلم.

يفيض المطلع كذلك بإحساس الشاعر بالفضاءين المتقابلين بأبعاد عميقة: الزمان والمكان، الغضى المفتَقَد بما فيه: الشجر الغض والجمر الشديد الاشتعال، والظل الظليل، والسامر ومكان الأحبة والدفء والمودة وجَمال القلاص والليالي الجميلة والشباب الراحل...أشياء مفتقدة في الزمان الحاضر، حاضرة في الذاكرة والوجدان واللسان،

---

(4) الأصفهاني، الأغاني، م.م، ج. 22، ص. 301.

(5) القالي، ذيل الأمالي، م.م، ص.135.

(6) انظر محمد رضا مروة، الصعاليك في العصر الأموي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1990، ص. 138.

غائبة عن الأيادي والعيان.

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بجنب الغضى أُزْجي القِلاصَ النواجيا[7]

ألا: للاستفتاح والتنبيه على انطلاق القول، والدخول في عوالمه، تجاوز عتبة الصمت إلى بوابات الإفصاح، إنه استفتاح المتمني الحالم بالمستحيلات، تمني الوصول إلى الغضى؛ العاجز المريض لا يمكنه ذلك لبعد المسافة ورحيل الشباب. أصبحت الحال حال مرض وعجز والتمني باب على الحلم المستحيل، عبر الاستفهام المعبر عن رغبة العاجز، وهي المبيت المؤكد بشكل إلحاحي (أبيتنَّ) : نون التوكيد الشديدة التي تظهر قوة هذه الرغبة وعنفها. (ليلة) يأمل الشاعر في ليلة واحدة، وقد جاءت نكرة، لتحمل دلالة عدم التحديد الزمني، العاجز لا يستطيع أن يحدد ليلة معينة لأن إمكانيات بلوغ ذلك ضئيلة، لذلك جاءت نكرة حاملة معنى الاحتمال واللاتحديد وشبه يأس بلوغها، إنها ليلة فقط..لكنها تظل مرتبطة في إحساس الشاعر بالدفء والخلود إلى السكينة. وهي ليلة تقابل في نفسيته النهار المليء بالحركة والفعل، بالنهارات التي مضت بجنب الغضى أو به. إن تغييب النهار وانتقاء الليل يحمل بدوره نزوعا إلى التخفي والاستتار، وكأن المعنى المقابل المؤَوَّل: لا يظهر بالغَضى نهارا إلا من تأتَّت له إمكانيات البروز: القوة والشباب والعُدَّة والمال، أما الغريب الذي افتقد كل ذلك بسبب مرضه وعجزه فلا يليق به إلا الليل، وكما تقول العرب "الليل أخفى للويل".

الغضى: جمع غضاة، وهو شجر معروف بخضرته الدائمة، وصلابة خشبه، وديمومة اشتعال جمره. بإمكاننا الوقوف مرة أخرى على هذا التقابل المستخرَج أو المُولَّد بين الغضاضة والاشتعال. فالغضى يحمل

(7) جمع ناجية، وهي الناقة السريعة التي تنجو بمن ركبها.

غضاضة الذكريات والحنين وطراوة الإحساس بزمن الشباب، لكنه الآن منعدم وغائب. كما يحيل على الاشتعال: اشتعال النار- عبر التذكر- والتحلق حولها أيام الشباب والهناء والسعادة والمرح.

بإمكاننا كذلك توليد تقابل آخر، وهو تحلق الإبل للرعي في الغضى، وتحلق الأهل حول نار شجر الغضى. إن الغضى في جميع الحالات بتقابلاته المختلفة، هو عالم الألفة والتجمع سواء بين الحيوانات التي ترعى، أو بين الناس المتحلقين حول النار.

لنقف مرة أخرى على المكونات التالية في البيت المطلعي: (أزجي) أي أسوق بلين ورفق.القلاص: جمع: قَلوص، وهي الناقة الطويلة القوائم، الشابة فيها الباقية على السير. والنواجي جمع ناجية: وهي الناقة السريعة التي تنجو بمن ركبها.

يحمل هذا البيت معاني الارتداد نحو الماضي بحركته ودفئه وجميع مكوناته، حيث الفاعلية متحققة، وأثر الشاعر في الحياة حاضر بقوة، كل شيء في الذكريات البعيدة جميل ومشرق، وكأن الذاكرة لا تمد المتذكرين إلا بما كان ممتعا وبديعا؛ إنه زمن الغارات والفرار والنجاة. مقابل ذلك -أي في خراسان- يظهر الموت قادما قريبا يدنو شيئا فشيئا، لينتصر على الحياة الماضية بعنفوانها وقوتها وجمالها.

إن علاقة الشاعر بالمكان (الغضى) لوحة قابلة لكل التشكيلات، بحيث يمكن ملؤها بكل الأشياء الجميلة في حياة الشاعر. ولأن البيت المطلعي يفضح سرية النص، ويختزل النواة الدلالية الكبرى التي تجتمع عندها باقي النوى الأخرى، فهو يساعدنا على تكوين أطر موسعة للتجربة الشعرية المؤسَّسة على تقابلات بديعة. وهكذا، يمكن الانطلاق من هذه البنيات المتقابلة في ذهن الشاعر وإحساسه لاستكمال السيناريوهات الناقصة التي شرعنا في إنشائها:

الشاعر	
الغضى	خراسان
الماضي	الحاضر
الشباب	الشيخوخة
الامتلاك	الافتقاد
ليلة	النهارات
الحلم الجميل	الواقع الصعب
يسوق بليونة (أزجي)	يساق بخشونة
السؤال (هل)	الواقع يجيب ب (لا)
زمن القرب (بجنب)	زمن البعد (نائيا)
دفء الصحة والقرب والتحلق	برودة المرض
الخير (القلاص الكثيرة)	الجذب والفقر
زمن التحلق والألفة	زمن الشتات
زمن الصحة	زمن المرض
زمن الأنس	زمن الألم والغربة
زمن البدايات	زمن النهايات
زمن الحياة	زمن الموت

↓ **الغضى بلاد مانحة** ↓ **خراسان بلاد سالبة**

تمنحنا آلية التقابل - القائمة على القراءة المتفاعلة والمشاركة - الفرصة لإغناء تجربة القراءة وإخصابها في جميع الاتجاهات الدلالية. وتبعا لذلك فإن السيناريو المُكوَّن ينبني على شقين متقابلين يتكملان عناصرهما اعتمادا على مشاركة تأويلية وبنائية حقيقية من طرف القارئ. يقوم التقابل المركزي في هذا النص على التشظي والتمزق في أحاسيس الشاعر أساسا، وشعوره بالغربة والموت.

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضى ماشى الرِّكاب[8] لياليا

الرَّكب: الجماعة من الناس يسافرون راكبين، والرِّكاب الإبل التي يسار عليها. يأتي البيت الثاني منميا لمعاني التمني، حاملا معه إحساس الشاعر بالخسران والعجز المطلق عن الفعل، وهو تحسر ينبني نصيا وتأويليا بشكل تقابلي: التمني الظاهر تعبيرًا وأداةً مقابل التحسر الضمني العميق على ما جرى.التحسر على قطع الركب لأرَض الغضى، مقابل التحسر على عدم مماشاة الغضى للرِّكاب. الواقع مقابل الحلم.الركب قد قطع الغضى مقابل الركب لم يقطع الغضى. الغضى لم يماش الرِّكاب مقابل الغضى ماشى الركاب.الغضى الأرض التي تم قطعها مقابل الغضى المرافق للركب. عَرْض الغضى مقابل طوله، لأن كل ما له عرض له طول، والطول أوسع مسافة.الغضى المتروك مقابل الغضى العاجز عن مماشاة الراكبين...إلى غير ذلك من التقابلات التي يمكن بناؤها.

عادة ما يقوم القول الشعري على التكثيف والاختزال، على الإظهار والإخفاء، ومن ثمة تفتح القراءة القائمة على إستراتيجية التقابل عددا من الواجهات والمداخل: منها المدخل اللغوي، والمدخل النحوي، والمدخل البلاغي، والمدخل الدلالي، والمدخل المنطقي، ثم التوازيات والتقاطعات والتماثلات، وهذه القراءة قادرة على تتبع نمو القصيدة، ومسايرة بنياتها جزءا جزءا.

لقد كان في أهل الغضى لَوْ دنا الغضى

مـــزارٌ ولكن الغضى ليس دانيا

(8) الرِّكاب هي الإبلِ التي يُسار عليها، واحدتها راحلة.وفي الحديث: " إذا سافرتم فأعطوا الركاب أسِنَّتَها، أي أمكنوها من المرعى".

يأتي البيت الثالث على شكل خبر إنكاري، مؤَكَّدا بـ"ا للام"و"قد"، وكأن الشاعر أحس باستنكار المتلقي لهذا الحب الشديد للغضى، ليؤكد عبر الإخبار على ارتباطه الشديد بقريته وأهله في الغضى، مبينا صبب هذا الارتباط بشكل تقابلي بديع: فالغضى -لَوْ دنا -مزار مقابل الغضى البعيد لا مزار.الغضى كان مزارا مقابل الغضى اليوم لا يُزار.لَوْ دَنا الغضى زُرْته مقابل الغضى بعيد وأنا عاجز.كانت الزيارة ممكنة لَوْ دَنا الغضى في مقابل امتنعت رؤية الغضى وأهلي.امتناع الزيارة لامتناع القرب مقابل امتناع الزيارة لوجود البعد.الغضى الداني مزار مقابل الغضى القاصي لا مزار.اكتمال الأمنية في الزيارة باكتمال شروطها: القرب والقدرة، في مقابل استحالة تحقق الأمنية بالاستدراك (لكن) لافتقاد شروط ذلك.

يقوم التأويل التقابلي على توليد المعاني التي يوحي بها القول، أو السير بموازاتها، أو تتميم نقصها. وهكذا يتبدى من البيت الثالث أنه توسيع لنواة العجز عن بلوغ الغضى عبر الرحلة المادية، فيكتفي الشاعر بالرحلة الذهنية عبر التذكر والارتداد نحو الماضي مذكرا بأسباب ذلك:

أَلَمَ تَرني بعت الضلالة بالهدى

وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

في محاولة لاستعادة بعض التوازنات النفسية، يتوجه الشاعر إلى المتلقي: من معه، وبعدها لغيره، في بناء تقابلي ظاهر وخفي تبنيه

القراءة التقابلية التالية: أَلم: استفهام منفي، ليس القصد منه انتظار جواب من المتلقي، وإنما تأكيد الفعل الحاصل، أي الانتقال من حال الصعلكة إلى الغزو. يحضر الاستفهام المنفي مقابل الجواب التأكيدي. السائل المستفهِم مقابل المسؤول الذي لا يُعوَّل على إجابته لعدم إفادتها

لوضع الشاعر في شيء.الرؤية البصرية (تراني) مقابل الرؤية العلمية وكذا الرؤيـة الحُلمية.الشـاعر مقابـل المخاطَب المباشر وغير المباشـر.البيع (بِعتُ) مقابل الاشتراء.البيع الحقيقي مقابل البيع المجازي (الضلالة لا تبـاع) .الضلالـة مقابل الهدى.الضلالة الحقيقية (الطريق) مقابل الضلالة المجازيـة (الكفـر) .بعـت (الفعـل الأول) مقابل أصبحـت غازيا (الفعل الثانـي) .أصبحـت (الزمن الحاضر) مقابل كنت (الزمن الماضي) .كنت فـي عِصابـة ناهبـة مقابـل أصبحت فـي جيش المسـلمين.عهد التلصص والإغارة مقابل عهد التوبة والصلاح.

لا شـك أن التقابـلات المبنيـة تبيـن مـدى اختزال القول الشـعري واقتصاده وطيِّه للمعاني، وكونه مبنيا على عوالم من المتقابلات المعنوية أو المادية التي يتأسس عليها الكون والعلاقات والوضعيات والحالات. وبما أن الأمر كذلك فإن أقرب الطرائق لفهمه وتلقيه هي تسخير آليات التقابل المتعددة للفهم والإفهام والتذوق.

وأصبحـت فـي أرض الأعـاديِّ[9] بعدمـا

أرانـي عـن أرض الأعـــادي قاصيـا

بوسعنا أن نجلي أكثر البنية التقابلية التي تأسست عليها القصيدة، وهـو مـا يقربنـا كذلك من إمكانيـات التعبير والكتابة، ومسـتويات البناء الشعري،كما يسمح لنا بتأسيس جمالية تأويلية قائمة على أدوات القول نفسـه، وإذا التقى التلقي الشـعري والإبداع الشـعري على مهاد واحد، وأرضيـة مشـتركة مـن آليـات القول ومسـتوياته، فإن التفاعل سـيحصل بشـكل كبيـر، ويكـون الشـعر قد وجـد له القراء الذين يفهمون الأسـس التعبيريـة التي ينبني عليها.ومن عناصر التقابل الممكن العمل بها: التقابل بيـن البيـت والبيـت الـذي يليـه وهو تقابل الجـوار أو التجـاور، ويتخذ

(9) الأعادي: جمع أعداء.

علاقات متعددة: تقابل التتميم، تقابل التوسيع، تقابل الشرح والتفسير، تقابل التماثل، تقابل التضاد....

في هذا البيت نجد تقابلا تتميميا على مستوى المعنى؛ فالواو العاطفة تحمل مطلق الجمع والاشتراك، "وأصبحت" الثانية تنضاف للأولى لتؤسس معها كذلك تقابل التضاد:أصبحت مقابل كنت. بعدما مقابل من قبل.الرائي مقابل المرئي.قاصيا مقابل دانيا وهو تقابل مُولَّد. كما يمكن مقابلته بما جاء في البيت السابق: دان إلى العدو مقابل قاص عن الغضى. العدو ليس قاصيا مقابل الغضى ليس دانيا.أرض الأعادي الأولى مقابل أرض الأعادي الثانية: تقابل التكرير الذي يرسخ تيمة الخطر الداهم.

أصبحتُ بين المسلمين في الجيش، مقابل أصبحت كذلك في مواجهة العدو.العدو القديم أصبح ناصرا مقابل العدو الجديد أعتى وأشد. بداية تحقق الأمن مع عدو قديم مقابل بداية الخطر مع عدو جديد.العدو القديم معروف مقابل العدو الجديد مجهول. المواجهة من قبلُ كانت اختيارا شخصيا مقابل المواجهة الآن لا اختيار فيها. الماضي حرية مطلقة في اتخاذ قرار الحرب مقابل الحرية مقيدة وقليلة في الحاضر لاتخاذ هذا القرار أو عدم اتخاذه.

يسمح لنا إجراء التأويل التقابلي بفهم دقيق للأسس الجمالية التي يتأسس عليها القول الشعري، ولعل الذين برعوا في القول الشعري إنما كان السر في ذلك هو نظرتهم إلى العالم وإلى الذات والحالات والمجتمع من حولهم نظرة تقابلية، فصاغوا أبنية نصوصهم تبعا لذلك. وقد لا يفطن المتلقي- في كثير من الأحيان- إلى أن السر وراء جمال القول وإبداعيته هو صناعته بطريقة تقابلية، تتخذ لها أبعادا ومستويات عديدة يبرزها التحليل النقدي والأدبي الذي ينطلق من هذا البعد الجمالي والتأويلي في فهم النصوص والخطابات، ولعل أكبر أسرار

نجاح أبي الطيب المتنبي -مثلا -في أشعاره وإشغاله للناس، هو البناء التقابلي البديع الذي تتأسس عليه نصوصه، فهو يبنيها على نظام الكون، ويؤسس بين عناصر المعنى هذه الإمكانيات التقابلية التي يجب أن ينتبه إليها النقد ليؤسس عليها نظرية موسعة في الفهم والإفهام. ويمكن لأي متمعن في أشعاره أن يلاحظ ذلك الازدواج المعنوي[10] سواء اعتمد على التضاد أو المقابلة، أو التشبيه أو غيرها.

4 - الزَّفْرة والقِناع

ظلت المعاني تتوالد في خَلَد الشاعر بهذا المنوال التقابلي القائم على التجاذبات الثنائية والجدلية والتفاعلية، وهي تكتمل شيئا فشيئا لتفصح عن تجربته الراهنة والماضية معا، في محاولة تبرير ما حدث، ولخلق تفاعلات نفسية وتجاوب فعال لدى المتلقِّيَيْن المباشرين (صاحباه) أو المتلقين المفترضين (أنا وأنت وغيرنا) . وهكذا يعود بنا الشاعر إلى ما قبل القول، وحال القول، وما بعد القول (المستقبل) وما يمكن أن يحمله من أحداث عندما يحصل الاطلاع على النص والتفاعل معه كما يحدث الآن.

دعاني الهوى من أهل أُود[11] وصُحبتي

بذي الطَّبَّين[12] فالتفت ورائيا

أجبت الهوى لما دعاني بِزَفْرَةٍ[13]

تَقَنَّعْتُ مِنها أن أُلام رِدائيا

(10) انظر دارسة يوسف الحناشي، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، الدار العربية للكتاب،طرابلس، ط.1، 1986، ص.40، وص.138 وص.176 وغيرها.

(11) اسم موضع.

(12) مكان بخراسان.

(13) إخراج النَّفَس بعد مده، النفس الحار تشبيها له بزفير النار (توقدها).

تتجه المعاني في هذين البيتين وما بعدهما، إلى إبراز تقابلات أخرى تُظهر مسار القصدية العامة للقصيدة، وهي التي يمكن توليدها وإعادة بنائها كما يلي:

الداعي مقابل المدعو. الفاعل (الهوى) مقابل المفعول به (ضمير المتكلم) .المدعو فرد مقابل المتروك دون دعوة: الجماعة المصاحبة.الهوى الداعي تابع مقابل الشاعر المدعو متبوع.الهوى قادم من أرض الغضى مقابل مكان الدعوة ذي الطبين.الفعل (الدعوة) مقابل رد الفعل (الالتفات) .الاستجابة والتأثر (الالتفات إلى الوراء) مقابل عدم الاستجابة وعدم المبالاة (التقدم إلى الأمام) .إن تأثر الشاعر بهذا الداعي الخفي يولد لدينا تقابلا ذا طبيعة بلاغية:الدعوة الحقيقة: الإنسان مقابل الدعوة المجازية (غير الإنسان). وكذا التقابل بين:دعاني الهوى مقابل أجبت الهوى.الجواب كلاما وبصريح العبارة مقابل الجواب كناية وزفيرا.الزفير (إخراج النَّفَس بعد مَدِّه، النفس الحار تشبيها له بزفير النار وتوقدها). الحرارة الصادرة في أنفاس الشاعر مقابل البرودة الغائبة.

يبين التقابل هنا مدى تفاعل الشاعر مع الداعي، وعدم الكلام والتصريح قناع رمزي يقابله قناع آخر، وهو الرداء الذي وضعه على وجهه حتى لا يظهر تأثره وبكاؤه أمام صحبته فيلام على ذلك:الزفرة: قناع معنوي خفي مقابل الرداء قناع مادي ظاهر. خاف الشاعر من اللوم الخارجي لأصحابه لكن مقابل ذلك يتحقق اللوم الداخلي، حيث يلوم نفسه على استسلامها للهوى، للماضي البعيد الذي يتبعه ويطارده ولا يستطيع الخلاص منه.

ولا شك أن هذا الجواب أي جوابه لصحبه يحتاج إلى توضيح وبيان:

أقـول وقـد حالـت قُـرى الكُـرْدِ بيننـا

جـزى اللـه عَمْـرا خيـر مـا كان جازيـا

إنْ اللـه يُرْجعنـي مـن الغَــزو لا أرى

وإنْ قَـلَّ مالـي طالـبا مـا ورائيــا

يأتي الجواب على شـكل قرار يتخذه الشـاعر مع نفسـه، يتقابل فيه الشـرط (إن الله يُرجعْني) بجواب الشـرط (لا أُرى)، وهو شـرط مزدوج يتقابل فيه الشرط الحاضر إن قَلَّ مالي بجواب الشرط المفهوم والمقدر والذي يبنيه المؤوِّل وهو (لا أُرى غازيا)، ولا أُرى طالبا ما ورائي.

وبوسـع التأويـل التقابلـي أن يمدنا بمزيد مـن المعاني المنبثقة من الافتراضـات الدلاليـة، منها أن الشـاعر يتحـرك طالبا المال، وبالتالي قد يبدو الجهاد وما يحمله من قيم ومعان دينية أمرا ثانويا: دخول الحرب للجهـاد مقابـل دخـول الحرب طلبا للمال. وربما يدفعنا مثل هذا الحفر الافتراضي إلى تأكيد حقيقة مفادها أن الشاعر لم تتغير فيه بَعدُ نزوعاته نحو جمع المال والكسـب والغنيمة، مقابل عقيدة الجهاد التي كان من المفـروض أن يعلـن عنهـا فـي هـذه القصيـدة، بحيث تتأكـد فيها صلته ومحبتـه للآخـرة ولقـاء ربـه، مقابل ذلـك ظل فيها شـاعرا دنيويا، يبكي علـى الدنيـا والمـال والأهل، ويتحــر علـى مصيره وما حصـل له وما سـيحصل من بعده.

يكشف لنا التأويل التقابلي- كما سيتبين لنا فيما بعد- عن مفارقة حقيقـية بيـن المؤمـن المجاهد الذي يتمنى الموت في سـبيل الله، وبين المقاتـل المرتبـط بأسـباب الدنيا الواهية؛ ولذلـك غاب في خطابه البعد الدينـي، الـذي كان بالإمـكان أن يعكـس لنـا تحـول شـخصية مالك بن الريب وتطهرها من نوازع الدنيا.

قد نفترض أنه تحكمت فيه عادات القول الشعري، وأنه حاكى الأولين في أنماط القول ورثاء الذات، غير أن رحلته في إطار جيش الفاتحين إنما كانت تغذيها نوازع بناء الذات وتحصيل المال والعودة بالغنيمة.هذا السير على طرائق السابقين في عادات القول تبينه الأبيات التالية:

5 - الظَّبية السَّانحة

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي
سِفارُكَ هذا تاركي لا أبا ليا
لَعَمري لَئِن غالَت[14] خُراسان هامتي
لقد كُنْت، عن بابَيْ خراسانَ نائيا
فإن أَنْجُ من بابَيْ خُراسان لا أَعُد
إليها وإن مَنَّيْتموني الأَمانيا
فلِلَّه دَرِّي[15] يوم أَتـرُكُ طائعا
بنيَّ بأعلى الرَّقْمتين وماليا
ودَرُّ الظباء السانحات[16] عشيةً
يُخَبِّرن أنّي هالك من ورائيا
ودر كبيرَيَّ اللذين كلاهما
علَى شفيقٌ ناصح لو نهانيا

---

(14) غالت: أهلكت.

(15) تقول العرب: لله دَرُّه رجلا، أي من الله كثرة مافيه من الخير. ومقابل ذلك: لا در دَرُّك للذم.

(16) سنح الظبي أو الطير سنوحا: مر من المياسر إلى الميامن. والسانح تتيمن به العرب وضده البارح ما جاء إلى الشِّمال.

ودر الرجـال الشَّـاهدين تَفَتُّكـي[17]
بأمـري أن لا يَقْصـروا مـن وثاقيـا
ودر الهـوى مـن حيـث يدعـو صحابتـي
ودَرٌّ لجاجـاتـي[18] ودَرٌّ انْتِهائيـــا

ينضاف إلى العالم الشعري في النص مكون إنساني جديد، وهو بنت مالك التي يسند إليها القول في الزمن الحاضر: تقول، والمقابل المقصود هو الزمن المستقبلي: ستقول، أو يحتمل أن تقول. ثم هذا السفر الممدود (سفار) مقابل (السفر) المحدود زمانا ومكانا. يتمظهر حضور البنت في مخيال الشاعر مالك، وفق بناء تقابلي يضفي على المعاني بعض المفارقات الصعبة التي صاحبت رحلته، وأثرها عليه وعلى من بعده؛ وهكذا يتأسس القول مرة أخرى كأي قول- وهو ما نريد تبيانه- نثرا كان أو شعرا على منطق تقابلي متباين الأشكال والتجليات، وذلك تماشيا مع التقابلات التي تقوم عليها الحياة نفسها، لأن الله تعالى خلقها وفق نمط زوجي، أو أنماط متقابلة، تتفاعل بها مكونات العالم فيما بينها أو تتقابل.

وتبعا لذلك فما من قراءة للنصوص ظاهرة أو باطنة، سطحية أو معمقة، إلا وتسير أثناء عملية الفهم بهذا النزوع الواعي أو غير الواعي نحو إدراك الأشياء بمقابلاتها. وليس القصد بالتقابل دوما التضاد، وإنما التماثل، والتناظر، والتشابه، وكذا التقابل تبعا للعلاقات الممكنة بين العوالم والحالات والوضعيات والقيم والأفعال.

وتنحصر التقابلات القرائية خلال هذا المقطع في: بدء التقول (قول البنت) مقابل الصمت السابق، ترجيح "رأت" العِلمية مقابل

(17) التفتك: العُجب.

(18) لج لجاجا ولجاجة: تمادى وأبى أن ينصرف. وفي المثل العربي: من طرق الباب ولَجَّ وَلَج.

"رأت" البصرية. طول الرحلة أمر غير مرغوب فيه من طرف البنت مقابل قِصَر الرحلة فهو أمر محمود، لكنه لم يحصل. الأب التارك ابنته تركا أبديا مقابل المتروكة دوما دون أب. كان لي أبَ قبل يوم معرفة الخبر مقابل لا أب لي بعد معرفة الخبر.

يأتي قول البنت اليتيمة على شكل صرخة مكلومة يتوقعها الشاعر، أو أي أب من ابنته، وهي تلومه على طول الرحلة وعدم العودة. فيقابل هذا القول المشتكي رد الشاعر المليء بالشكوى والتفجع كذلك:

لعمري لئن غالت خراسان هامتي
لقد كنت عن بابَيْ خُراسان نائيا
فإن أَنْجُ من بابَيْ خراسان لا أَعُد
إليها وإن مَنَّيْتموني الأَمانيا

يأتي القسم ليؤكد الخبر، تقرير حال الاغتيال الذي لحقه من خراسان، وكذا (لقد) التي تضيف بعدا تأكيديا للخبر، وكأنه يقول: والله لقد كنت بعيدا عن خراسان فلما دخلتها اغتالتني. بإمكان إستراتيجية التأويل التقابلي، وهي تقوم على الافتراضات المعجمية، والتركيبية والدلالية، والبلاغية، فتنقل بذلك المعاني من حال إلى آخر تبعا لحركة الذهن، وتنامي أفعال التأويل وتشكلها،ومن ثمة بالإمكان توسيع دائرة المعاني كما يلي:

المقسِم مقابل المقسَم به.خراسان المغتالة مقابل الشاعر الذي يُغتال.الهامة (الجزء) في مقابل الجسد كله وهو المقصود.

الإنسان موضوع للاغتيال مقابل خراسان تغتال.الفعل على الحقائق مقابل الفعل على المجازات.كنت بعيدا عنكِ يا خراسان يقابله لم أعد بعيدا عنك.بابا خراسان: باب الدخول مقابل باب الخروج. خراسان قاتلة مقابل غيرها من البلاد بها حياة.إن أنج مقابل لا أعد.فعل نجا

محذوف جزما لأن النجاة غير مكتملة مقابل لا أعد. كما أن فعل العودة مجزوم لأن العودة غير مكتملة. النقص التركيبي في الفعل مقابل النقص الواقعي في التحقق. لما منيتموني جئت إلى خراسان يقابله إن منيتموني مستقبلا لا أعود...

غرضنا من هذا التحليل كشف البنيات الدلالية المتقابلة التي يتأسس عليها الخطاب الشعري أثناء صياغته، ولذلك حاولنا إعادتها إلى منطلقاتها الأولية، أو كما تشكلت في خَلَد الشاعر، غير أن صناعة النص لا تحافظ عليها كما هي في أصل تشكلها، فيتم تغييرها وتقليبها تبعا لأدوات صناعة الشعر وطرقه الإبلاغية، فتخضع حينا للتقديم والتأخير، وحينا للحذف والتقدير، أو الاختزال، كما تخضع لآليات البلاغة وضروب التعبير المجازي، وكذا آليات النحو وتراكيبه. وكل ذلك يخلخل المنطق التقابلي الأولي، ويجعل المعنى إيحائيا أو رمزيا، حاضرا كليا أو جزئيا،...وهذا ما يعمل التأويل التقابلي على إجلائه وتوضيحه.

وبما أن المعاني لا تكتمل في بنية البيت الواحد، فإن توالي الأبيات يضيف عوالم أخرى من التقابلات التي تحمل أبعادا أخرى إلى العالم الشعري.

فلله دَرِّي يوم أَترُكُ طائعا
بنيَّ بأعلى الرَّقْمَتين وماليا
ودَرُّ الظِّباء السانِحات عشيةً
يُخَبِّرن أني هالك من ورائيا
ودَرُّ كَبيرَي اللّذين كلاهما
على شفيق ناصح لو نهانيا
ودَرُّ الرجال الشَّاهدين تَفَتُكي
بأمري أن لا يقصروا من وثاقيا

ودَرُّ الهوى من حيث يدعو صحابتي
ودر لجاجاتي ودر انتهائيا

يزداد العالم الشعري في النص ثراء لو عمقنا تجربة القراءة التقابلية أكثر، وهي تسمح لنا باقتناص العوالم المتقابلة التالية:

لله دَرِّي (المدح المثبت) مقابل لا دَرَّ دري (الذم المغيَّب) .المعنى الظاهر (المدح) مقابل المعنى الباطني

(التعجب والإشفاق) .أترك طائعا (الحالة المأمولة) مقابل أترك اضطرارا (الحالة الواقعة والمرفوضة) ..مالك التارك مقابل البنين والمال المتروكين. المكون الإنساني مقابل المكون المكاني (أعلى الرقمتين). المكون الإنساني (مالك) مقابل المكون الحيواني الظباء السانحات. السوانح (طيور التيمن تأتي من اليمين) مقابل البوارح (تأتي من اليسار دالة على الشؤم) والموافق للمقام الشعري هي البوارح لا السوانح[19]. المخبِر (الظباء) مقابل المُخبَر به (الهلاك) .الإخبار (غير مؤكد وغير مثبت) مقابل التخبير (تأكيد الفعل وهو اختيار الشاعر هنا) .المخبِر (الظباء) مقابل المُخبَر (الصحاب والأهل) . حمولة زمن الرحيل المختار شعريا (عشيةً) مقابل حمولة الصباح (زمن الولادات) . "لله دَرِّي" مقابل "لله دَرُّ كبيري".الكبيران (الوالدان) مُشفقان مقابل مالك موضوع الشفقة مشفق عليه.الوالدان ناصحان مقابل مالك منصوح. الوالدان ناهيان مقابل مالك المنهي.النهي الحاصل مقابل النهي موضوع تمنٍّ."لله دري" مقابل "لله در الرجال".الرجال الشاهدون مقابل مالك المشهود.لله در الهوى مقابل لله در مالك.لله در مالك مقابل لله در لجاجاته (تماديه) مقابل لله در انتهائه) .

---

(19) ابن منظور جما ل الدين بن محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط. 3، 1994. مادة" سنح" ومادة "برح".

ثـم تُقابـل هـذه المكونـات كلها مالـكا المملوك: مالـك/ البنت/ الوالـدان/ الرجـال/ الظبـاء/ الهـوى/ التمـادي/ الماضـي/ الحاضر/ الحياة / الموت.

ثم ننتقل عبر التقابل من هذا المستوى التفاعلي مع مكون المعتقد القديم والمعتقد الجديد، حيث يتم الاحتفال على عادة الجاهليين بالتطير والقِيافة، مقابل غياب الاسـتسلام لمشيئة الله والإيمان بالقضاء والقدر، عبـر اسـتدراج المكـون الحيواني (الظبيـة) في بعدها الجمالـي المغَيَّب وحضـور بُعدِها التطيري التشـاؤمي، وهـو من التقابلات البديعة في بناء القـول، مـع اختصـاره وتركيـزه؛ فإقصـاء البعد الجمالـي للظبية كما هو معروف تم استبداله ببعد الإنذار والإخبار بالمأساة، وهي طاقة جوهرية مضمرة في القول، يستقصيها البحث عن الدلالات والمعاني.

6 - عندما يبكي الحصانُ صاحبَه

تَذَكَّـرت مـن يبكـي علـي فَلَـم أجـد

سـوى السـيف والرُّمْـح الرُّدَيْنـي[20] باكيـا

وأشـقرَ محبـوكا يَجُـرُّ عِنانــــه

إلـى المـاء لـم يتـرك لـه المـوت سـاقيـا

لا نبحث في هذا المقام التأويلي عن إعادة بناء معاني قصيدة مالك لشرحها أو إفهامها فحسب، وإنما نسعى إلى تبيان بعض الآليات التقابلية التي بالإمكان أن تسعف المحللين ودارسي الخطابات ومدرسيها بالأداة التحليلية والتأويلية لمقاربة بعض الظواهر النصية عبر تجريبها وتطبيقها. إن الاشتغال على النص من هذا المنطلق يظل مفتوحا وقابلا للاجتهاد فيه حسـب النصوص، وحسـب توجهات المؤولين واهتماماتهم النقدية والمنهجية.

---

(20) رُدَينة زوجة السمهري.كانا يُقوِّمان القنا.

بوسعنا أن نقف في هذين البيتين عند التقابلات البنائية ثم التأويلية التالية:

المتذكَر	مقابل	المتذكِّر
تذكرت (الماضي)	مقابل	الزمن الحاضر المقصود
بكاء (من) العاقلون	مقابل	بكاء ما (غير العاقل) .
"لم أجد" المختارة	مقابل	"وجدت" الغائبة فعليا وحضوريا
"أجدُ" (الزمن الحاضر)	مقابل	"لم أجد" (قلَبت لم النافية الزمن إلى الماضي)
لم يبك من يبكي	مقابل	بكى ما لا يبكي
البكاء الحقيقي منعدم	مقابل	البكاء المتوهم حاصل
بكى السيف والرمح	مقابل	بكى الحصان المتروك
ارتواء الفرس حاصل دون صاحبه	مقابل	ارتواء الفارس غير حاصل دون فرسه
العنان الذي يجره الفارس	مقابل	العنان الذي يجره الفرس
ارتواء الشاعر الحقيقي غير ممكن	مقابل	الارتواء الوهمي حاصل

تقوم في ذاكرة الشاعر عناصر استبدالية (السيف والرمح والحصان) لعناصر غائبة بدءا (الأهل والصحاب) . ثم هذه الصورة الرائعة التي تحمل كل معاني التولي والفجيعة، واختلال الأمور لدى الفارس والفرس معا؛ الأول لا يرتوي والثاني يرتوي ارتواء الخائف المتروك الجافل. إن تقابل الافتقاد حاضر بقوة بين الطرفين المالك

الذي لم يعد يملك، والمملوك الذي أصبح دون مالك. غير أن هذه التقابلات الأولية تقابل بدورها انتقالا دلاليا في البيت الموالي:

ولكـن بأكنـاف[21] السُّـمَيْنَة نِسْـوة
عزيـز عليهـن العشـية مـا بيـا

وفيه يستدرك مالك ما فاته من أن هناك بالسُّمَينة (اسم مكان) نساء يتألمن لما ألمَّ به من مرض، رغم بعده عن الديار فإنه يجد من يعز عليه حاله، ولعلهن نسـاء القرى التي مر منها مالك وأصحابه. وليس النسـاء فقـط هـن مـن تألمـن، وإنما الرجال كذلـك تألموا لحاله وهم يسـوون لحـده، وهـو تقابـل يفضـي إلـى تصوير الحالـة التي آل إليهـا مالك من الانهيار والعجز عن المسايرة، ثم الموت والترك.

7 - القَبْر المَتْروك

صريـعٌ علـى أيـدي الرجـال بقفـرة
يُسـوُّون لحـدي حيـث حُـم قضائيـا

ولمـا تـراءت عنـد مـرو منيتـي
وخَـلَّ[22] بهـا جسـمي وحانـت وفاتيـا

أقـول لأصحابـي ارفعونـي فإنـه
يقـر بعينـي أنْ سـهيلٌ[23] بـدا ليـا

فيـا صاحبـي رحلـي دنـا المـوت فانـزلا
برابيـة إنـي مقيـم لياليـا

أقيمـا عَلَـيَّ اليـوم أو بعـض ليلـة
ولا تُعجـلاني قـد تبيـن شـانيا

---

(21) الجوانب والنواحي.

(22) اختل وهزل.

(23) نجم.

وقوما إذا ما اسْتُل روحي فهيِّئا

لي السِّدر والأكفان عند فنائيا

وخُطَّا بأطراف الأسنة مضجعي

ورُدَّا على عيني فضل ردائيا

ولا تحسداني بارك الله فيكما

من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خُذاني فجراني بثوبي إليكما

فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

يقوم هذا المقطع على تجاذبات ثنائية أخرى عميقة، وفيه يتحول مالك إلى صاحبيه آمرا وناهيا، مفتخرا ومتذكرا، في تسلسل تقابلي بديع، سواء في البنية الظاهرة للخطاب أو في فحواها ومن ذلك:

المفرد مقابل المثنى.المخاطِب مقابل المخاطَب.الآمر مقابل المأمور.النسوة المتأثرات مقابل الرجال الذين يسوون اللحد.القفرة الممتدة مقابل اللحد المحدود.المنية مقابل الوفاة (تقابل الترادف). الناهي مقابل المنهي عنه (تقابل طرفي الخطاب) . المنادي مقابل المنادى عليه (تقابل طرفي الخطاب) . سهيل النجم (موقع الرؤية والحلم) مقابل الأرض (موقع الألم والفجيعة) .السمائي مقابل الأرضي.الرفع مقابل الإنزال.الإقامة مقابل الرحيل.النجم مقابل الرابية ومقابل اللحد.اليوم مقابل الليلة.الاقتياد مقابل الانقياد.الجر مقابل الانجرار.الأمر الحقيقي مقابل الأمر المجازي.السدر مقابل الأكفان."ارفعوا" مقابل "انزلا"، مقابل "أقيما" مقابل، "لا تعجلاني" مقابل "قوما"، مقابل "هيِّئا"، مقابل "خُطَّا"، مقابل "رُدَّا"، مقابل "لا تحسداني"، مقابل "خُذاني"، مقابل "جُرَّاني"،مقابل "قوما"، مقابل "أسمعا"، مقابل "لا تنسيا"، مقابل "بلِّغا". وهو تقابل تواتر الأوامر

والنواهي الموجهة إلى المتلقين المباشرين الحاضرين لحظة صناعة الخطاب.

يحمل هذا المقطع الشعري كثيرا من التقابلات البنائية التي تثوي وراءها دلالات كثيرة، وسيتبين للقارئ أن العلاقات الموجودة بين هذه العناصر المتقابلة مختلفة، فهي تقوم على التضاد، أو التماثل، أو التوازي، أو التتابع، أو التجاور، أو السببية، أو الزمن، أو البعضية، أو التواتر، أو التقابل، أو الترادف، أو التكرير، أو تقابل طرفي الخطاب، أو تقابل تركيم أفعال تسير في اتجاه تداولي واحد،الخ(24)...لكنها تتساند لتشكل المشهد الشعري الذي يروم الشاعر تصويره ونقله إلى المتلقي مباشرا وغير مباشر.

وهكذا فبإمكاننا القول إن إدراكه للعالم- ساعة احتضاره- شكّلَته المعاني القائمة على تباين الأبعاد بين المأمول والواقع، بين ما كان يحب أن يرى وما يرى بالفعل.

كان يحب أن يموت بين أهله مقابل موته بقفرة.الإحساس بقرب الأجل (حالة أولى) مقابل اختلال الجسد) حالة ثانية) مقابل حلول الوفاة) حالة ثالثة) .إن هذه المستويات المتقابلة سببيا وتراتبيا تُظْهر استفحال الأمر.كما أن تقابل الترادف بين: المنية/ الوفاة، وتكرير هذا المعنى يؤكد هذه الحقيقة التي رأى أن لا مفر منها.

---

(24) تكلم إيكو عن الأزواج المتقابلة فحدد البنيات المنطقية التالية:
التقابل التناقضي: (حسن / قبيح)، تقابل التكامل: (زوج/ زوجة)، تقابل التحويل: (باع/ اشترى)، تقابل القياس: (كبير/ صغير)، تقابل الاتصال: (الاثنين/ الثلاثاء/ الأربعاء)، تقابل الاتصال والتراتب: (سنتمتر/ متر/ كيلومتر)، تقابل التعاكس: (الجنوب/ الشمال)، تقابل التحول عكسيا: (وصل/ انطلق)...
انظر كتاب:
U. Eco, Sémiotique et philosophie de langage, traduit par Myriem Bouzaher, P.U.F, Torino, 1984, p.p 113-114.

وتبعا لذلك يتوجه إلى أصحابه برفعه إلى الأعلى، لأن سُهيلا بدا، وسهيل هذا نجم يماني لا يُرى إلا في بلاد العرب[25]، ومع سهيل تنضج الفواكه. بين سهيل (المكان السمائي) وبين الغضى) المكان الأرضي) تقابل يربط المكانين عنده؛ فالغضى الذي تعذرت رؤيته لبعد المسافة تجلى في سهيل، غير أن هذا الأمر بالرفع إلى الأعلى لا يلبث أن يتحول إلى مقابله النقيض، لأنه لا يأتي بشيء، فيأمرهما بإنزاله إلى رابية، وهي ما ارتفع من الأرض. إن نزوله النهائي يريده في الأعلى الأرضي عند العجز عن العلو السماوي، وهو نزول وإقامة مدى الليالي.

ثم إن الأمر في حقيقته يصدر من ذات أعلى إلى ذات أدنى، غير أنه في النص يتحول من طاقته الحقيقية إلى طاقته الاستلزامية حسب المقام، وهذا هو الأمر الطلبي، والحال نفسه بالنسبة للنداء، فهو يخرج من طاقته الحقيقية إلى طاقته الطلبية، كما هو الشأن لأداة النداء، التي تستعمل في نداء البعيد، واستعملت هنا للقريبين رفعا لمكانتهما وقربهما من قلب المنادي.

وهكذا تتأسس المعاني -كما هو واضح - على المستويات والأبعاد المتقابلة بكل العلاقات أو الأسباب الممكنة.كما أن كثيرا من التقابلات تأتي استجابة للمعاني والدلالات التي يستلزمها المقام التواصلي. "أقيما" مقابل "لا تُعْجِلاني"؛فيطلب الإقامة يوما كاملا أو بعض ليلة، لأنه شبه متيقن أن رحيلهما سيكون لا محالة في الصباح الباكر (الاغتداء) .وتهيء الأكفان (غطاء الجسد) والسدر (غطاء القبر)، والرداء (غطاء العينين)، التراب (غطاء الجسد والكفن)،الأرض الواسعة مقابل القبر الضيق.

ويتابع الشاعر تصوير المشهد النهائي لحياته، طالبا من صاحبيه

---

(25) ابن منظور،م.م، مادة" سهل".

أخـذه وجـره إلـى القبـر، مقابـلا ذلك بحالتـه يوم كان صعـب القياد لا ينجر ولا ينقاد. وهكذا يلاحظ القارئ أن فضاءات النص تأسست على المعانـي المتقابلـة، ولذلـك يحسـن عند تلقيه لها أن تفهم بالنمط نفسـه الـذي بُنيـت بـه، فهـو أقصر طريق إلى تمثلها، بل هو الطريق المستقيم إلى فهمها، تبعا للمنطق ذاته الذي بُنِيت به.

وعندمـا انسـدت الآفـاق أمام الشـاعر في الزمـن الحاضر، وضاق فضاء الحلم بالمستقبل، تقابلت في ذهنه أيام العجز في الحاضر وأيام القوة والشباب في الزمن الماضي، ولو من باب تهدئة النفس، وذكرها ذكرا حسـنا والتذكير بأمجادها، مسترجعا نُصرته للمهزومين وشجاعته في الحروب، في انسياب تعبيري ورثائي قائم على تصور العالم تصورا مزدوجـا وثنائيـا؛ وإن تـم ذلك بشـكل اختزالي لأن فضاء القول يقتضي ذلك ويتطلبه:

8 - الصَّدى وصداه

وقـد كنـتُ عَطَّافـا[26] إذا الخيـل أدبـرت
سـريعا لـدى الهيجـا إلـى مـن دعانيـا
وقـد كنت صبارا على القِـرن[27] في الوغى
وعـن شـتمي ابـنَ العـم والجـارَ وانيـا
فَطَـوْرًا تراني في ظـلال ومَجْمَـعٍ
وطَـوْرًا تراني والعِتـاق[28] رِكابِيـا
ويومـا تَراني في رحى مُسْتديـرة
تُخـرِّق أَطْـراف الرِّمـاح ثِيَّابِيـا

(26) الذي يحمي المنهزمين.

(27) القِرْن: النظير والكفؤ.

(28) العِتق: الكرم والجمال والنجابة.

وقوما على بِئْر الشُّمَيْنة أَسْمِعا

بها الغُرَّ والبِيض الحسان الروانيا[29]

بأنكما خَلَّفْتُماني بِقَفْرَةٍ

تَهيلُ علي الريح فيها السَّوافيا[30]

ولا تَنْسَيا عهدي خَلِيلَّي بعدما

تَقَطَّعُ أوصالي[31] **وتَبْلى عِظامِيا**

وهكذا بوسع المتلقي أن يبني مجموعة من التقابلات، حسب أنماط العلاقات التي تتراءى له، فالنحوي يكتشف بمعرفته النحوية عددا هائلا من الإمكانيات والحالات التقابلية، تسعفه في ذلك ذخيرته النحوية. وتظهر للبلاغي بحكم اتساع أدواته البلاغية إمكانيات دلالية متقابلة عديدة، لأن كيفيات القول والتعبير تتم اعتمادا على الدلالات الحقيقية والمجازية، وعلى الإمكانيات العديدة التي تمنحها علوم البلاغة في هذا المجال. وصاحب المنطق تتأسس على نظرياته وتصوراته للعالم تقابلات كثيرة، تمنحها وتجليها العلاقات الممكنة بين الأشياء؛ واللغوي الممتلك لذخائر لغوية، أو الباحث عن المداخل المعجمية يمكِّنه اشتغالُه بالنصوص والبنيات والأساليب من عدد هائل من العتبات التأويلية القائمة على علاقات الترادف، والتضاد، والتماثل، والتراتب والسببية...وهكذا دواليك في كل العلوم والآليات المنهجية والقرائية فبالإمكان تطويعها، وإغناؤها بإستراتيجية التأويل التقابلي. كما أنه بالإمكان الاستفادة من هذه الحقول المعرفية كلها وإدماجها ضمن نسق تأويلي تقابلي واحد، بحيث تسهم البلاغة والنحو واللغة والمنطق، ومناهج قراءة النص، والموسوعة، وذكاءات القراءة في

---

(29) يرنو: ينظر باستمرار.

(30) ما حملت الريح إلى أصول الحيطان.

(31) أوصال جمع وُصْل كل عضو في الجسد على حِدة.

اكتشاف أنساق النص المقروء الظاهرة والخفية، وكل ذلك يعزز تجربة التأويل ويغنيها.

من التقابلات الممكن الوقوف عليها في هذا المقطع:

مالك	
إثبات ظاهر	نفي مضمر
عَطّاف (يحمي المنهزمين)	لا فار بجلده
سريع إلى الحرب	متثاقل
الإغاثة	اللامبالاة بالمستغيثين
مستهدف في الحرب	عديم القيمة
خفيفا على الأقران	ثقيلا على العدو
كريم محمود الزاد	لا بخيل
الألفة والاستمتاع بالملذات	العزلة والشح
الشجاعة والإقدام	الجبن والإحجام
↓ المُثْبتات	↓ المنفيات

بعد هذا المقطع الذي يسترجع مظاهر البطولة في زمن الشباب الذي ولى، وبعد تعزية الذات بهذه الأمجاد والمفاخر، توجه مالك إلى صاحبيه آمرا إياهما بالقيام على بئر السمينة، وإبلاغ الخبر إلى الأفراس الغر والبيض، ولعل منظرها وجمالها وامتلاكه لها مما كان يعتز به، لذلك ذكرها ولم يذكر الناس. غير أن الإشارة إلى الناس حاصلة، ذلك أن فضاء البئر وتجمع الناس لسقي جيادهم معناه

اطلاعهم على الخبر.لكن يحز في نفس مالك بقاؤه مدفونا في فلوات وقفار لا تتحرك فيها إلا الرياح التي تدفع السَّوافي (ما حملته الريح إلى أصول الحيطان) .

إن الريح تحفر وتغطي مثل التذكر والحكي عن الماضي، ولذلك ظل مالك يفكر فيما يمكن أن يقع بعده؛ فالقبر المتروك مَدعاة لأن تغطيه الرياح بالأتربة فتمحو معالمه وأثره، فيصبح مجهولا.و يذكر مالك بشكل استشرافي نظرات الجياد التي سترتوي من بئر السمينة، وهي نظرات رنو عميقة، وكأنها تتأسى على الفارس الذي انتهى أجله بعيدا عن الديار. ويلح على أن يتذكره صاحباه في زمن يأتي بعد البلى الجسدي المنتظر وتقطع الأوصال.

تنشأ التصورات والصور في ذهن الشاعر تبعا لتجاذبات تقابلية عميقة الدلالات، مصورة لأحاسيس مفعمة بالمرارة: "قوما" مقابل "لا تقوما". "أَسمِعا" مقابل "أكتما"."أسمعا الجياد" مقابل "أسمعا الناس"."خلفتماني بقفرة" مقابل "خلفتماني بين الأهل". "الريح "مقابل "الرياح". "لا تنسيا" مقابل "تذكرا". "بعدما" مقابل "من قبل". الحياة المتصلة مقابل التقطع والبلى.

إنها تقابلات مُولَّدة من بين أخرى ممكنة، تبين أن نظم الكلمات والصيغ يخضع لحظة الإبداع أو القول لاختيارات دقيقة تلائم المعنى المراد التعبير عنه، لذلك فهي تخضع لمنطق الإثبات الصوتي أو الكتابي، مقابل إزالة عناصر أخرى مقابلة أو ثانوية. غير أن البناء الشعري والإيقاعي وما يفرضه من اختزال واقتصاد لغوي، وحذف وطي المعاني يقصي العناصر الزائدة أو التي ستُخِل بالوزن، ولذلك فكثير من المعاني في الشعر لا تقال وإنما تفهم وتبنى تأويليا، ومن أهم وسائل بنائها التأويل التقابلي.

9 - مالك الذي لا يملك

ولـن يعـدم الوالـون[32] بثًّـا[33] يُصيبهم

ولـن يعـدم الميـراثَ مِنـي المواليـا

يقولـون لا تبعـد وهـم يدفنونـني

وأيـن مـكان البعـد إلا مكانيـا

غـداةً[34] غـدٍ يـا لهـف نفـسي علـى غـد

إذا أدلجـوا [35]عنـي وأصبحـت ثاويـا[36]

وأصبـح مالـي مـن طريـف[37] وتالـد[38]

لغيـري وكان المـال بالأمـس ماليـا

فيـا ليـت شـعري هـل تغيـرت الرحـا

رحـا المَثْـل[39] أو أَمْسـت بِفَلْـج كمـا هيـا

إذا الحـي حَلُّوهـا[40] جميعـا وانْزَلـوا

بهـا بَقَـرا حُـمَّ[41] العيـون سَـواجيـا[42]

---

(32) بنو العم والأقارب.

(33) الحزن الشديد.

(34) الصباح الباكر.

(35) سارو ليلا.

(36) مقيم.

(37) المستحدث من المال.

(38) المال القديم.

(39) اسم موضع.

(40) نزلوا بها

(41) سود.

(42) سواكن.

رَعَيْـن وقـد كاد الظـلام يَجُنُّــهـا[43]

يَسُـفْن الخُزامـى مَـرَّة والأَقاحيــا[44]

وهـل أَتْـرُكَ العيــس[45] العوالـي بالضُّحى

بِرُكْبانهـا تَعلـو المِتـان الفيافيــا[46]

إذا عُصَــب الرُّكبـان بيـن عُنَـيْـزَة[47]

وبـولان عاجـوا المبقيـات النواجيـا

يحمل البيت الأول من هذا المقطع كثيرا من المفارقات التي أحس بها الشاعر، فبُعده بالنسبة لدافينه قرب، لأنهما سيرتاحان من عبء ثقيل، ومـن مريـض متهالـك لا يقـوى على مواصلة الرحلـة. يحمل النهي في قولهما له: لا تبعد معنى الدعاء، لكنه لا يصدقه بسهولة، ولذلك يحمل الاسـتفهام: أيـن مـكان البعـد إلا مكاني؟ هذه الطاقة الاسـتلزامية الدالة على النفي، أي لا مكان أبعد من مكان دفني. أحاسـيس طبيعية يشـعر بها مالك الذي كان يحلم بالوصول إلى أهله بعد غربة طويلة، ثم يباغته المـرض والمـوت، فيختـزل كل معاني وجوده، وما بعده في أبيات هذه القصيـدة التـي تحمـل في طياتها،ككل نص طبعا، طاقـة التقابل المعبر، وطاقـة التصريـح والتلميـح، وقوة البوح والإسـرار... فـ "يا" الدالة على الزمن الحاضر في "يقولون" المقصود به سيقولون في الزمن المستقبلي أي بعد موته، فهو يتنبأ بما يمكن أن يقال بعد وفاته، وتبعا لذلك ينصب تفكيره على لحظة الاستسلام الكبير بمرارة زائدة وتأسف كبير.

(43) يسترها.

(44) نبات له زهر أبيض.

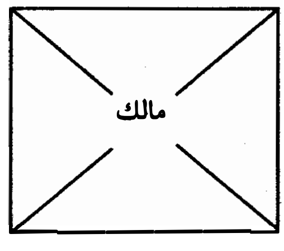
(45) الإبل.

(46) الصحارى.

(47) اسم مكان.

يستشرف مالك لحظات الغد بتحسر عميق، لأنه يعرف أن حمل جسد الميت إلى قرية الغضى، ولمدة طويلة من زمن الرحلة، لا جدوى منه، أو إنه غير ممكن، لذلك فكر في اللحظة التي يُترك فيها مقيما في القفار، فيتفجر هذا الشعور القاسي عبر مجموعة من التقابلات الحاضرة ضمنيا في بنية الخطاب:غداة غد مقابل مساء غد.النداء الحقيقي مقابل النداء الحامل لمعنى التحسر واللوعة.غد مقابل غد (التكرير اللفظي) .الإدلاج مقابل الإصباح.كنت مسافرا مقابل أصبحت مقيما.أدلجوا (ساروا ليلا) مقابل بقيت مدفونا.كان المال مالي مقابل أصبح المال لغيري.الطريف (المال المستحدث) مقابل التليد (المال القديم) .المال البارحة لي مقابل المال اليوم لغيري.أنا الموروث مقابل هم الوارثون.

وهي تقابلات تبرز مدى الجزع الذي شعر به الشاعر ساعة احتضاره، وهو يفكر في صاحبيه اللذين سيدفنانه حتما، ثم يمضون في دجى الليل قبل طلوع الفجر بقليل، وحين يطلع النهار يتحول المال الذي من أجله ترك مالك الغضى إلى الآخرين. نظر مالك بشكل عبثي إلى ما صار إليه حاله، وظل يتدبر شعريا في متناقضات الحياة، ويبقى التقابل في حالاته المختلفة جوهرها.



بين الأمس واليوم والغد حدثت وتحدث (زمن التجربة) أشياء مريبة في حياة مالك، الذي تحول إلى مالك الذي لم يعد يملك، وكل هذا الذي حدث ظل الشاعر ينظر إليه نظرة توجس مصحوبة بالأحزان

واللوعة البالغين. ليقتنع في الأخير بانحباس وتوقف حركة الزمن في حياته، وعجزه عن العودة إلى الزمن الذي راح، وما يقابله من الأمكنة التي ظلت مبهجة مشرقة في حياته، وقد تم التعبير عن ذلك كله في بنيات نصية ذات أبعاد تقابلية نصية وأخرى يبنيها التأويل.

التمني الظاهر	مقابل	التلهف
السؤال	مقابل	اللاجواب
التغير	مقابل	عدم التغير
الرحى (مكان)	مقابل	رحى المثل (مكان) مقابل (فلج) .
حلول أهل الحي	مقابل	انصرافهم
بقر بعيون سود ساكنة	مقابل	نسوة سود العيون جميلات
رعي البقر في المساءات الجميلة	مقابل	مرح أهل الحي في تلك المساءات
ترك العيس (الإبل البيض) اختيارا	مقابل	ترك العيس رغما عنه
الضحى	مقابل	الظلام
جمال البقر في العشيات	مقابل	جمال العيس بالضحى
أترك العيس	مقابل	أترك ركبانها
عنيزة (مكان)	مقابل	بولان (مكان)

تفيض هذه التقابلات بالحسرة على الدنيا المتروكة بناسها وأمكنتها الجميلة وعيسها وبقرها وملذاتها، أشياء يحملها التذكر وتمر على قلب الشاعر المحتضر الذي يتولى عنها غير ظافر بأي شيء، ليسترد الحنين إلى أهله وأمه ويخصها بمقطع كأنه رسالة موجهة إليها:

فيا لَيْت شِعري هل بَكَتْ أُمُّ مالك

كما كُنْت لو عالوا نَعيك باكيا

إذا مِتُّ فاعتادي القبور وسَلِّمي

على الرَّمس أُسْقيتِ السَّحاب الغواديا

علـى جَـدَثٍ قَـد جَـرَّت الرِّيـح فَوْقَــه
تُرابـا كَسَـحق المَرْنبانِـيِّ [48]هابيــــا[49]
رهينـةُ أحجـار وتُـرْبٍ تَضَمَّنَـــت
قرارتُهـا[50] مِنِّـي العِظـام البَواليـــا

لا يقتصـر بنـاء المعنـى إنتاجا وتأويلا علـى البنيات الجزئية داخل الأبيـات، وإنمـا يتشـكل كذلـك مـن خلال المقاطـع والبنيـات الدلالية الكبرى في النص، وبإمكاننا أن نرصد هذه التقابلات من بداية النص:

بنية الحنين إلى الغضى مقابل بنية الندم على الخروج إلى خراسان، مقابل بنية الإحساس بقرب الأجل، مقابل التفكير في المستقبل القريب وما يطلبه من صاحبيه، مقابل بنية تذكر أمجاد الماضي، مقابل بنية التحسر والضيق من الآتي، مقابل بنية الترك والمتروك، مقابل بنية الأم الباكية، مقابل بنية المشهد البكائي للأهل.

بنية الحنين
بنية التأسف
بنية الاحتضار
بنية استشراف المستقبل
بنية التوسل إلى الأصحاب
بنية التذكر
بنية التحسر والتبرم من الحاضر
بنية التارك والمتروك
بنية التباكي

وهـي بنيـات تتقابـل تقابـل تكامـل وتنـامٍ؛ إنها بمثابـة لوحات

(48) ثوب من الخز.
(49) من هبا يهبو.
(50) بطن الوادي حيث يستقر الماء.

ومشاهد، كل مشهد يقابل الآخر، والشاعر في تقابل مع كل المشاهد، يفحصها داخل قلبه ومخياله، والقارئ يقابل النص، ويراقب تقابل الشاعر مع المشاهد كلها.

أخيرا -وكما ذكرنا-فإن مقطع الحديث عن الأم انتقال تقابلي للمقطع موضوع الترك والمتروك.وفيه ثنائيات وتقابلات:

الابن (مالك) مقابل أم مالك. الذكورة الراحلة مقابل الأنوثة الباقية.النعي القائم مقابل التبشير بالقدوم (وهو غير حاصل) . البكاء الذي لم يتم مقابل البكاء الذي سيتم."هل بكت؟"مقابل "ستبكي حتما".بكاء أم مالك مقابل بكاء مالك (تقابل الشبه) .أنا مقابل هي (على سبيل الالتفات) ."اعتادي" (فعل طلبي) مقابل سَلِّمي (فعل طلبي كذلك) .الآمر العاجز مقابل المأمور القادر.

الداعي بالسقيا (الميت) مقابل المدعو له بالسقيا (الحي) . ثم تتواتر صورة القبر ومالك صاحب القبر الغريب، علما أن هذا التقابل يظل النواة التي تأسست عليها القصيدة، وانبثقت عنها حسرة مالك بسبب اغترابه حيا مقابل اغترابه ميتا. لذلك يتوجه إلى صاحبيه في المقطع الموالي طالبا الإخبار بقصته وبطولته ومطالبا بذكره الذكر الجميل. ولعل مأساة مالك وتأثر صاحبيه بما جرى له كان سببا حقيقيا كافيا لرواية القصيدة والاحتفاظ بها، ثم نقلها للناس لتنتشر بينهم.وتلك حياة أخرى لمالك، فكم من مالك كان يملك أكثر مما مَلَك مالك، لكن التاريخ لم يحتفظ له بذكر حسن، ونص بليغ مثلما صنع ابن الريب مع التاريخ والأدب ومع نفسه.

10 - نسوة لو شَهِدْنَني

فيا صاحبا إما عَرضت فَبَلِّغا

بني مازن والريب أن لا تلاقيا

وعَـرِّ قَلوصـي فـي الـرِّكاب فإنهـا
ستُفْلِقُ أكبـادا وتُبْكـي بَواكيـا

وأبْصَـرت نـار المازِنِيـات موهِنـا
بعليـاءَ يُثْنـى دونهـا الطـرف رانيـا

بعـود ألَنْجـوج[51] أضـاء وقودهـا
مَهـا فـي ظِـلال السِّـدر حـورا جوازيـا

غريـب بعيـد الـدار ثـاوٍ بِقَفْـرة
يَـدَ الدهـر معروفـا بـأن لا تدانيـا

أُقَلِّـب طرفـي حـول رَحْلـي فـلا أرى
بـه مـن عيـون المؤنْسـات مُراعيـا

وبالرَّمـل مِنَّـا نِسْـوة لـو شَـهِدنني
بكيـن وفَدَّيـن الطبيـب المداويـا

ومـا كان عَهْـد الرَّمْـل[52] عنـدي وأهلـه
ذميمـا ولا بالرمـل وَدَّعْـت قالـيا[53]

فمِنْهُـن أمـي وابنتـاي وخالـتي
وباكيـة أخـرى تهيـج البواكيـا

في هذا المقطع الختمي يوصي مالك صاحبيه بالتبليغ، تبليغ الخبر عندما عجز مالك عن البلوغ بجسده وروحه، ويمكن بناء التقابلات التالية:المنادي مقابل المنادى عليه. أداة نداء البعيد مقابل استعمالها للقريب دلالة على منزلتهما في نفسه وقربهما. مالك لا يصل أهله (جسدا) مقابل الخبر ـيصل (صورة الجسد) . بني مازن مقابل بني

(51) عود الطيب يُتبخر به.

(52) قرية الشاعر.

(53) قلى: بمعنى ترك وهجر.

الريب.التلاقي المستحيل مقابل اللا تلاقي الحاصل.تعرية القلوص مما تحمل عليه لأن في إزالة الرِّكاب عنها سيمياء وعلامة على أنها فقدت صاحبها، وعندما يراها الأهل دون حمولة ودون راكب، فذلك علامة على الفقد الأكبر والعودة الخاسرة، عودة الناقة وحيدة دون صاحبها.

مقابل هذا المشهد المفجر لمشاعر البكاء، يتطلع مالك إلى ما يبهج النفس ويعيد لها اعتبارها، باحثا عن عيون المؤنسات فلا يجد من كل ذلك شيئا، لينتهي إلى هذا التقابل التتابعي: الغريب/ مالك. البعيد عن الدار/ مالك. المقيم بقفرة/ مالك. إقامة مالك/ طول الدهر. طول الدهر/ لا تداني. طَرْف مالك / عيون المؤنسات الغائبات. بالقفار لا عيون تؤنس أو تبكي/ بالرمل عيون تؤنس وتبكي. الباكية المهيجة/ الأم المفجوعة/ الخالة/ البنتان/ مالك المحبوب/ أهل الرمل المحبون لمالك/ الرمل المحبوب/ الزمن المحبوب.

تحضر هذه الذوات كلها في ذهن الشاعر بشكل تقابلي، علها تحقق ألفة مبحوثا عنها، أنسا ما، حضورا، تباشير حياة، ولكنها لا تتأتى ولا تنفعل ولا تفعل وقتها. لقد انفعل مالك شعريا باللحظة بكامل تفاصيلها، والمؤكد أن الموت قد أمهله حتى أبدع نصا من نفيس الشعر العربي في رثاء الذات، ومن المؤكد أن مالكا لم يحفل، بالكيفية التي ستقرأ بها قصيدته، ولا الغايات التأويلية والتحليلية التي ستكون موضوعا لها ذات يوم مثلما فعلنا أو فعل غيرنا[54]، وإخضاعها للتجريب المنهجي.

(54) انظر في هذا الصدد محمد فتوح أحمد، جدليات النص، عالم الفكر، المجلد الثاني والعشرون،1994،ع.3و4،ص.ص39-64.وكذا عبد العزيز السبيل، ثنائية النص، قراءة في رثائية مالك بن الريب، عالم الفكر،1998، مج.27،ع.1،ص.63. وقد ركزت الدراستان على الجدليات والثنائيات في النص، وقد نهجنا منطلقا قريبا منها وهو التقابلات، في إطار مشروع تأويلي موسع نطمح إلى تحقيق بعض ملامحه استنادا إلى مجموعة من التصورات المقترحة، وكذا تطبيقها على عدد من النصوص والخطابات.

من جهة أخرى فقد حاولنا إبراز هذه التجربة الإنسانية وتقديمها للقراء أو تذكيرهم بها، وبكيفيات القول الشعري وأنماطه، غير أن هدفنا كان -كذلك- تقديم تجربة في القراءة والتلقي قائمة أساسا على التقابلات، ودعما للتصور الذي تكلمنا عنه من قبل، ومن أجل إمداد المتلقين عموما، والمدرسين والطلاب خاصة بروح قرائية منطلقها الثنائيات والتقابلات التي تتأسس عليها الحياة والوجود، ثم يتأسس عليها بعد ذلك القول الشعري في أبعاده المختلفة

ولذلك من الطبيعي - في تصورنا-أن يبنى عليها الفهم والتأويل باعتباره تجربة لاحقة لمنشأ القول وإمكانياته المختلفة. وقد كشفنا من خلال القراءة المنجزة أن بناء التقابلات تتحكم فيه أدوات القارئ المؤَوِّل ومرجعياته وذخيرته، وهو مدعو لتطعيم طريقته بملمح إضافي يغني فهمه، ويكسبه عمقا وجوديا يعيش معه التجربة الإبداعية في مختلف مناحيها وأبعادها الدلالية. ولا شك أنه سيجد نفسه في تقابل حقيقي مع عدد هائل من النصوص مات أصحابها، أو لا زالوا على قيد الحياة. ومن ثمة فهو يعيد لها النظام التقابلي الذي تقوم عليه الحياة أصلا، ثم ينظم ذلك ضمن حياة جديدة من التفاعل التأويلي والقرائي، بل أكثر من ذلك يجد نفسه مقابلا لعدد من البوابات والموازيات السياقية والثقافية ولا يسعه إلا محاورتها، وفتح أقفالها لإغناء ما يكتب، أو ما سيقدمه للآخرين الذين يشكلون بدورهم مقابلين لما كُتب لهم ونحن لا نعرف عددهم ولا صورهم ولا مواقعهم الاعتبارية. وعلى هذا يتأسس الوجود والأدب وتأويله، فكل نظام من القول يقابله نظام مثله، وتتناسل التقابلات وتتفاعل وتتطور، وذلك سر بهجة الحياة من حولنا واستمرارها. ذاك هو سر صناعة المعنى عبر تقابلاته النصية، وسر بلاغته عبر تجلياته الخطابية.

الفصل الرابع

تقابلات النص وبلاغة الخطاب الشعري الحديث

قصيدة "نسر" لعُمر أبي ريشة[1] تمثيلا

مقاربة تأويلية تقابلية

تقديم

تدخل في شعرية النص عناصر كثيرة، تطرق إليها النقد الأدبي باستفاضة، وتوجهت عناية النقاد-خاصة- إلى مقاربة المكونات اللغوية، والتركيبية، والأسلوبية، والرمزية، والبنيات الاستعارية والمجازية، وكل ما يتعلق بالصورة الشعرية، وتعدد المعاني والقراءات، وغير ذلك؛ وقلما تطرق البحث النقدي إلى مستوى حاضر بقوة في جمالية الخطاب الشعري وبنائه، وهو البنيات التقابلية التي تؤطر العناصر السابقة، وتتحكم في حضورها بشكل نسقي قوي. إن بنية التقابل هي المادة الذهنية الأولية، أو المعنى الأساس، أو البنية التحتية التي تبنى عليها الخطابات عامة، لهذا نحاول إعادة الاعتبار لهذا العنصر الظاهر/ الخفي الذي يسكن النصوص، ويتحكم في صناعتها. كما أن إدراك جمالياته ودوره المحوري في الخططات الذهنية الأولية للمعاني يهدي القارئ،

(1) عمر أبو ريشة (1910 – 1990م)، شاعر سوري شهير، ولد في منبج بسوريا، وتلقى تعليمه الابتدائي في حلب، وأتم دراسته الثانوية في الجامعة الأمريكية، ثم تابع دراسته بانجلترا عام (1930م). يعتبر عمر أبو ريشة من كبار شعراء وأدباء العصر الحديث، وله مكانة متميزة في ديوان الشعر العربي الحديث. وشعره يتوزع ما بين المنحى القومي والمنحى الرومانسي.

ومحللي الخطاب عامة، إلى أدوات واضحة لاستكشاف المعاني وصداها، صداها داخل النص الشعري مثلا، وصداها في الحياة ككل، وفي سياقاتها الفعلية والخطابية المفترضة، ثم صداها في تجربة الشاعر، وتطور الشعر ومسارات تحولاته، وصداها أخيرا في القراءات المقدمة له، ومنها القراءة التي ننجزها الآن.

النص[2]:

نَسْر

أصبح السفح ملعبا للنسور
فاغضبي يا ذُرى الجبال وثوري
إن للجُرْح صيحةً فابْعثيها
في سماع الدنيا فحيح سعير
واطرحي الكبرياء شِلْوًا مُدَمًّى
تحت أقدام دَهْرِك السِّكير
لملمي يا ذُرى الجبال بقايا النسر
وارمي بها صدور العصور
إنه لم يعد يُكَحِّل جَفْنَ النَّجْم
تيهًا بريشه المنثور
هَجَر الوَكْر ذاهلا وعلى عَيْنيه
شَيْءٌ من الوداع الأخير
تاركا خلفه مواكب سحب
تتهاوى من أفقها المسحور

(2) عمر أبو ريشة، الديوان،دار العودة، بيروت، ط. 1971،1، مج.1،ص.ص.158-162.

كَـمْ أكبت عليه وهـي تُنـدّي
فوقَـه قُبْلَـة الضحـى المخمـــور

***

هبـط السَّـفَحَ طاويـا مـن جناحيـه
علـى كُلِّ مطمـــح مقبـــور
فتبـارت عصائـبُ الطيـر مـا بيـن
شَـرودِ مـن الأذى ونَفـــور
لا تطيـري جَوَّابَـةَ السـفح فالنسـر
إذا مـا خبرتـه لـم تطيـــري
نَسَـلَ الوَهَـنُ مِخْلبيـه وأَدْمَـتْ
مَنْكِبَيْـه عواصـف المقْـــدور
والوَقـارُ الـذي يَشـيعُ عَليـــه
فَضْلَـةُ الإِرْث مِـنْ سَـحيق الدُّهـور

***

وَقَـفَ النَّسْـر جائعـا يَتَلـــوى
فـوق شِـلْو علـى الرِّمـال نَثيـر
وعِجـافُ البُغـاثِ تَدْفعـــه
بالمِخلـب الغَـضِّ والجنـاح القصيـر
فَسَـرَتْ فيـه رَعْشَـةٌ مـن جُنـــون
الكِبْـر واهْتَـزَّ هَـزَّة المقـــرور
ومَضـى سـاحبا علـى الأُفـق الأغبـر
أنقـاض هيـكل مَنْخـــور

***

وإذا ما أتى الغياهِب واجْتاز
مَدى الظَّن من ضمير الأثير
جَلْجَلَت منه زَعْقَةٌ نَشَّت الآفاقُ
حرّى من وهجها المستطير
وهوى جُثة على الذِّرْوَة الشَّماء
في حُضْنِ وَكْره المهجور
أيُّها النسر هل أعود كما عُدتَ
أم النَّفح قد أمات شعوري

بوسع إستراتيجية التقابل- التي وضحنا محتوياتها من قبل- أن تمد مقاربة قارئ هذا النص بأنواع من التقابل، وهي بمثابة مفاتيح لولوج عوالم المعنى، منها: التقابلات المؤَطَّرة، التقابلات الفرعية داخل النص: التقابلات الخلافية، والنظيرية، والنقيضية، وغيرها.تقابل النص والعنوان،تقابل المعاني، تقابل الحالات والوضعيات، التقابلات النحوية، التقابلات البلاغية، التقابلات الإيقاعية، تقابل مواقع الشك ومواقع اليقين...

تتضمن التقابلات المؤطِّرة: تقابل النص والسياق، مواقع القارئ الاعتبارية ومواقع المنتج الاختيارية، النص والتاريخ، النص مقابل نصوص أخرى موازية، تقابل النص والموسوعة والمعرفة الخلفية، تقابل كلمات النص والمواد المعجمية الموسعة، تقابل النص ومعطيات من حياة منتجه، وكذا القراءات التأويلية السابقة له.

على أساس هذه الخصوبة البنائية والتأويلية التي يمنحنا إياها التقابل، فإن دور القارئ يتمثل في الربط والتنسيق، وملء بياضات النص وإشباع الدلالات. فتح بوابات العبور ومراقبة المعابر والطرق السَّيارة للمعاني الرابطة بين النص وموازيا ته ومراجعه.إن إجراءات

التقابل الأولية لفهم التجربة الشعرية في قصيدة "نسر"، يمكن أن تنطلق من الأرضية الرومانسية التي يمثلها هذا الاتجاه الأدبي بخصائصه الموضوعية والفنية والجمالية، مقابل خصائص التجربة الإحيائية التي عمل على تجاوزها لغة وموضوعات وصورا ومقاصد وغايات فنية؛ لأن من شأن الإلمام بمواصفات الظاهرة الأدبية في تحولاتها أن يعمق تجربة القراءة، ويؤسس لزاوية تلق مناسبة. كما يسمح هذا المدخل القرائي للدارس المعلم بالإفادة أو المتعلم بالاستفادة أن يدرك هذه التقابلات المؤطِّرة:الشعر الإحيائي مقابل الشعر الرومانسي، الإتباع مقابل الإبداع، ترديد الماضي وقيمه مقابل البحث عن قيم جديدة، الاحتفال باللغة القديمة مقابل البحث عن معجم جديد،النسق التعبيري القديم مقابل النسق التعبيري الجديد،مادة الصورة الشعرية القديمة وخصائصها مقابل مواد الصورة الشعرية الحديثة ومواصفاتها، وغير ذلك من التقابلات التي تضيء التجربة الشعرية الحديثة وتجلي أبعادها. وحسبنا التمثيل إذ ليس المقام مقام تحليل،فالأفق التصوري لاشتغالنا ينحو نحو الكليات ولا يقارب التفاصيل إلا على هذا السبيل.

من التقابلات الكبرى التي تمهد للقراءة: تقابل حياة الشاعر/ حياة النص ومعانيه؛ فمعرفة السمات المميزة لحياة صاحب النص واتجاهه الأدبي، وأهم الوقائع الحياتية تقع ضمن المداخل الحقيقية لفهم حياة المعاني في النص بشكل دقيق.

ولنقف الآن عند بعض الإمكانيات التأويلية التي يسمح بها العنوان استنادا إلى التقابلات الافتراضية والتصورية التي تمدنا بها كلمة "نسر":

نسر "إنساني" مقابل نسر حيواني، نسر المفوح مقابل نسر الأعالي، نسر حي مقابل ميت، نسر معرفة مقابل نسر نكرة، نسر مذكر مقابل نسر مؤنث، نسر قوي مقابل نسر ضعيف،نسر مفرد مقابل نسر جمع، نسر

حقيقي مقابل نسر رمزي...

لا شك أن هذه الإمكانيات وغيرها تتوارد على ذهن القارئ، وهو يتفحص الاحتمالات التي يسمح بها الدال "نسر". هذه الافتراضات تمكن القارئ من إدراك المدلولات الواردة على الذهن، مقبولة أو غير مقبولة، لكنها محتملة وقائمة[3]، إنها سيناريوهات تأويلية متشعبة، سيتم الاحتفاظ بها، فيما بعد، إذا أيدها المسار الدلالي لنمو النص.

بعد تأمل هذه التقابلات وفق مسار افتراضي تأويلي، تتضح اتجاهات المعنى شيئا فشيئا، وتنتهي بتكوين القارئ لأفق تصوري محدد، يتأكد أكثر أو يُنفى جملة وتفصيلا، أو يستبدل عند قراءة المطلع، ثم يُتناول بدوره تناولا تقابليا، مما سيضفي على القراءة طابع التشعب والاغتناء؛ لأنها تجربة قائمة على الافتراض والتخمين والحدس الدلالي؛ تثبت بعدها احتمالات دلالية دون أخرى تبدو بعيدة ولا تترجح بأي مرجع نصي أو سياقي، وهكذا دواليك.

تنمو القراءة التقابلية وفق مسار شجري تشعبي، ثم توسع القراءة وتدعم الأغصان والفروع الملائمة، والمنسجمة مع الجسد الدلالي للنص، ومقابل ذلك تُترك الأغصان أو الفروع غير الجديرة بالبقاء (يابسة وموحشة)، لأنها تبدو غير متجانسة مع أغصان النص وفروعه وثماره. ويمكن لنا أن نتصور القراءة على أنها كائن حي ينمو، ويتطور، ومع هذا التطور والنمو تستمر العناصر القادرة على البقاء حية دون غيرها، كما

(3) أشار "دو سوسير" إلى أن الكلمة الواحدة تثير في الذهن كل ما هو قابل لأن يرتبط بها بشكل طبيعي، أو بسبب من المساق الكلامي الذي وُظفت فيه. انظر في هذا الصدد:

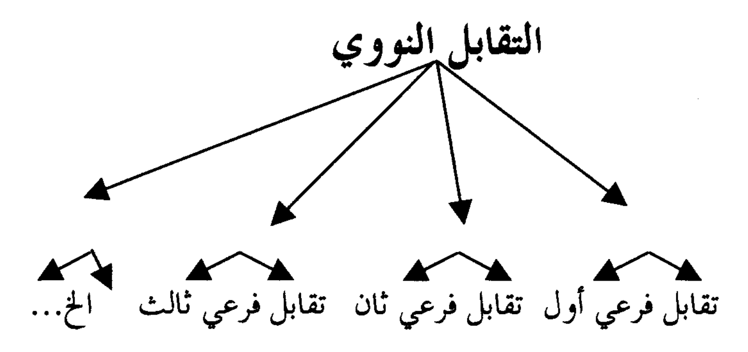
O. Ducrot/T.Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil ,1972,p.327.

وانظر كذلك ما يتعلق بالافتراضات المعجمية والوجودية عند فرانسوا راستيي:

Francois Rastier, Sémantique interprétative, Ed. PUF, Paris,1987, p.230.

يمكن أن ننظر إلى النص بدوره على أنه شجرة دلالية لها جذع تتأسس عليه، ولها أغصان وفروع وثمارها هي المعاني.

إن جذع النص هو التقابل النووي المحوري، الذي تتفرع عنه باقي النوى الدلالية وتتشعب. وفيما يتعلق بالنص الشعري فإن البيت المطلعي في معظم الأحيان يفضح سرية النص، ويشكل القاعدة الدلالية التي تُبْنى عليها اللواحق والفروع، (الصداقة مقابل العداوة) مثلا، أو (الحياة مقابل الموت)، أو (الإيمان مقابل الكفر)، أو (الامتلاك مقابل الافتقاد)، أو (العز مقابل الذل)، أو (تجربة في الحاضر مقابل تجربة في الماضي) أو غيرها.



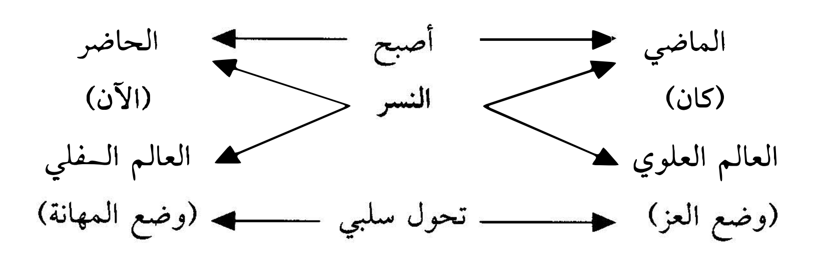
تجدر الإشارة إلى أن قراءة المطلع، والقراءة الأولية الاستكشافية للنص تمكن القارئ الناقد أو القارئ المدرس أو المتعلم، من تشكيل هذا التقابل المركزي الكلي (النووي) .

إن أساس التقابلات القرائية هو التساند بين العناصر الحاضرة في النص والعناصر الغائبة (السياق مثلا)، فهي تحضر بدءا وإن كانت خاطئة، وذلك لإحداث تمثل أفضل للمعنى. وهكذا بالإمكان أن نتوقف عند مجموعة من التقابلات الجزئية انطلاقا من التقابل المركزي في المطلع:

أصبح السفح ملعبا للنسور

فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري

يعلن البيت الأول عن تحول مفاجئ سلبي لا يقبله الشاعر، حيث أصبحت النسور في السفوح؛ ومن ثمة يطلب من القمم أن تغضب وتثور على هذا الوضع. فما هي التقابلات الظاهرة والخفية التي تأسس عليها هذا المعنى لحظة إنتاجه؟ بإمكاننا أن نكشف عن ذلك من خلال الخطاطة التالية:



بإمكاننا أن نكشف تحكم التقابل في صناعة المعنى من خلال التقابلات الاستتباعية:

(السفوح مقابل القمم)، (اللعب مقابل الجد)، (الغضب مقابل الهدوء)، (الغضب مقابل الثورة)، (الآمر مقابل المأمور)، (المنادي مقابل المنادى)، (الأمر الحقيقي مقابل الأمر الاستلزامي)، (السبب مقابل النتيجة)، (الإنساني مقابل الطبيعي)، (الخبر مقابل الإنشاء) ...

تكشف هذه التقابلات عن تشكل الدلالة في وعي الشاعر، واختياره مكونات معجمية وتركيبية دون أخرى للتعبير عن مراده. إن عملية الاختيار والاستبدال هي سر صناعة المعنى الشعري، خاصة وأن مجال القول مقيد بالوزن والقافية، وهو ما يجعل المعنى الشعري مختزلا وغير مكتمل، لأن فضاء الشعر هو فضاء معنى وجمالية، اقتصاد لغوي وإيحاء لا مجال تقرير وتفصيل ونشر.

ولو عمقنا النظر، وتجاوزنا المستويات التي اعتاد النقد الوقوف عندها، من نحو وبلاغة وانزياح وغيرها، لاكتشفنا - بقليل من التمعن -

أن التقابل الصناعي (البنائي) الذي يقصده المنتج، هو الجامع والمؤَطِّر الخفي الذي يتحكم في تشكل النص. خاصة إذا كان الشاعر على وعي به، متحكما في إدارته أثناء الكتابة أو إعادة الكتابة.

تقوم التجربة الشعرية الحديثة عند كثير من الشعراء على صناعة التقابل، وهي تُكْسِب النص جمالية خاصة، وسحرا أخاذا يثير القارئ، ويدخله في رحلة البحث عن أسرار شعرية النص؛ ونص أبي ريشة خير شاهد على أن الكتابة الأدبية تمتلك أداة بليغة لصياغة المعنى وهي التقابل.

إن النص الشعري يقدم للقارئ أداة قرائية قائمة على التقابل:

جمالية شعرية التقابل جمالية تأويلية

وهكذا يمكن تجميع التقابلات الفرعية في تقابل مركزي نووي ينتظر تتميمه وتوسيعه في القصيدة، وهو قائم على التحول من القوة إلى الضعف، من الجد إلى اللعب، من العز إلى الهوان.

إن للجرح صَيْحَةً فابْعَثيها
في سَماع الدنيا فحيح سعير

يقوم التقابل الشعري في هذا البيت على تقرير حالات، والبحث عن إمكانات. واستنادا إلى الاشتغال على المداخل المعجمية يمكن تحديد المستويات التقابلية التالية: (أصبح السفح ملعبا مقابل اغضبي)، (للجرح صيحة مقابل ابعثيها)، (ذات مُلاحِظة عاجزة مقابل قوة مفترضة في الجبال)، (الجارح مقابل المجروح)، (الجرح الحقيقي مقابل الجرح المعنوي)، (الجرح الجديد مقابل الجرح القديم)، (العطب مقابل السلامة)، (الجرح الصامت مقابل الجرح الصائح)، (الحقيقة مقابل المجاز)، (الصيحة للإنسان مقابل الفحيح للأفعوان)، (السعير الحاضر مقابل البرودة الغائبة) ...

لعل القارئ سيكتشف أن نمو النص يسير بشكل تقابلي، لأن بنية التقابل تتحكم في تشكل المعاني والأفكار أثناء التخاطب، كما أن التقابلات، عموما، اختزال للمكونات والأبعاد التي تحضر في الكون والوجود في بعديه المادي والمعنوي.

واطرحي الكبرياء شِلوا مُدَمَّى
تحت أقدام دهرك السكير

سيطول بنا المقام لو بحثنا في التقابلات الحاصلة بين الأبيات، على مستوى اللغة والتراكيب النحوية والدلالة، ونكتفي بالإشارة إلى بعضها لنبين كيف تتوازى البنيات عبر مجموعة من العلاقات لتخلق جمالية شعرية (المعطوف-ابعثي- مقابل المعطوف عليه بالواو -اطرحي-)، (الطرح مقابل الاحتفاظ)، (الكبرياء مقابل التواضع)، (شلو- وهو العضو- مقابل كل الجسد)، (الجزء مقابل الكل)، (مُدمى مقابل غير مُدمى)، (تحت مقابل فوق)، (أقدام مقابل أيدي)، (الدهر السكير مقابل الدهر الصاحي)، (الطارح-الجبال مقابل المطروح-الكبرياء)، (الضمير المستتر مقابل الجبال)، (الآمر بالطرح-الشاعر مقابل المأمور بالطرح-الجبال)، (الطرح الممكن مقابل الطرح المجازي)، (الاستجابة الممكنة مقابل الاستجابة المستحيلة) ...

إن القراءة التقابلية تسير بشكل تفتيتي، وتحاول إعادة القول إلى عناصره الأولية، فتُبَيِّن كيف يبنى على مستوي الذهن، من حيث كل ما يتوارد عليه، ثم يحصل اختيار عناصر دون أخرى، تبعا لمقصدية المنتج. وهو ما يسهم في فهم النتاج الأدبي وتذوقه، والتجاوب معه.

وهكذا، فإلى حدود البيت الثالث، لا زالت الحركة في النص تسير في اتجاه سلبي، سواء من جهة النسر أو من جهة الجبال (عدم القيام بالفعل)، أو من جهة الشاعر (المتوجِّه بالأمر إلى غير قادر على الفعل). ويمكن استخلاص التقابل الضمني التالي: البنية الدلالية الحاضرة:

النسر ـــ حركة سلبية ـ الجبال ـــ حركة سلبية ـ الشاعر ـ حركة سلبية (حاصلة)، مقابل البنية الدلالية الغائبة: النسر ـ حركة إيجابية - الجبال ـ حركة إيجابية ـ الشاعر ـــ حركة إيجابية (غير حاصلة) .

تنضوي الحركات السلبية ضمن الزمن "السكير"- كما ينعته الشاعر- مقابل الحركات الإيجابية ضمن الزمن "الصاحي"، لتظل عناصر التجربة السلبية حاضرة ومتنامية، وهي التيمة التي يسعى الشاعر إلى تثبيتها بناء على مقصديته وتصوره لوظائف الشعر.

لمَلِمي يا ذُرى الجبال بقايا النسر

وارمي بها صدور العصور

تتحكم في شعرية هذا البيت مجموعة من التقابلات الظاهرة والخفية، والتي ننطلق في الوقوف عليها من بنيات معجمية وتركيبية[4]: (اللملمة مقابل التشتيت)، (نداء البعيد مقابل نداء القريب)، (البقايا مقابل الأصل)، (ارمي بها (خطاب موجه للجبال) مقابل لا ترمي بها)، (الرمي الحقيقي مقابل الرمي المجازي)، (صدور العصور:مضروبة مقابل الجبال ضاربة)، (فعل إهانة العصور مقابل فعل تكريم العصور) ...

إنه لم يعد يُكَحِّل جَفْن النَّجم

تيها بريشه المنْثور

نحاوِل استرداد كثير من العناصر الخفية التي تنبني عليها شعرية القصيدة، لتجليتها عبر تقليب المعاني على وجوهها، حتى تتبين عبر نقائضها أو مماثلاتها: (كان يكحل جفن النجم مقابل لم يعد يكحل جفن النجم)، (التعبير بالكناية مقابل المباشرة في القول)، (العلو والتباهي والجمال مقابل السقوط)، (المزيِّن: النسر مقابل المُزَيَّن: النجم)،

(4) يظل "التأويل المعتمد على اللغة هو الشكل التأويلي الأكثر تميزا" كادامير.انظر:
H.G.Gadamer, Méthode et vérité, Seuil, Paris,1976, P. 246.

(الريش المنثور تيها مقابل الريش المنثور ضعفا) . إن التحول من زمن التيه والتباهي وتزيين الأعالي، إلى الزمن النقيض- في المقابل- يتضح أكثر عبر مجموعة من التقابلات التتميمية في البيت الموالي:

هجر الوَكر ذاهِلاً وعلى عينيه

شيء من الوداع الأخير

(الهجرة الاضطرارية مقابل الإقامة الاختيارية)، الذهول مقابل اللاذهول)، (على عينيه مقابل في قلبه)، (الوداع الأخير مقابل الوداع المؤقت)، (الوداع أخير ظاهريا مقابل وداع أوّل باطنيا)، (القشر مقابل اللباب)، (المعنى الظاهري مقابل المعنى الباطني) .

تاركا خَلْفُه مواكبَ سُحُبٍ

تتهاوى من أُفُقِها المسحور

تتقابل في البنية الظاهرية والخفية لهذا البيت العناصر التالية (التارك: النسر مقابل المتروك: السحب)، (خلفه مقابل أمامه)، (مواقع ورائية مقابل مواقع أمامية)، (تتهاوى مقابل تتعالى)، (فعل لا إرادي مرفوض مقابل فعل إرادي غير حاصل)، (مِنْ مقابل إلى)، (الأفق والحركة الأفقية الثابتة مقابل الأرض: الحركة العمودية المفاجئة)، (المسحور:تحكم غير ذاتي مقابل الطبيعي: تحكم ذاتي) .

كَمْ أكبت عليه وهي تندّي

فوقه قُبْلة الضحى المخمور

في مقابل الحركة الارتدادية للنسر، يأتي البيت مقابلا تتميما لهذه الحركة، عبر مجموعة من العناصر النصية وأخرى يبنيها التأويل.

(كم الخبرية كناية عن العدد الكثير وهي المرادة مقابل كم الاستفهامية للسؤال غير مُرادة)، (السُّحب المُندِّية مقابل النسر المُندَّى)، (قُبلة الوداع مثبتة مقابل قبلة اللقاء منفية)، (التحول من المفعولية: السحب مُقبَّلة مقابل تحول من الفاعلية إلى المفعولية: النسر مُقبَّل)،

(الضحى المخمور التوصيف المراد مقابل الضحى الصاحي توصيف لا يناسب اتجاه النص الدلالي)، (الضحى المخمور حقيقية مقابل الضحى المخمور على المجاز)، (الضحى مخمور مقابل الضحى مخمور أهله) ...

وتستمر تفاصيل هذه الحركة في شكل تقابلي ظاهر وخفي، بنائي ومؤَوَّل، وهو ما يسمح لنا بتأكيد القول على أن الذي يحكم عملية ولادة النصوص، وخاصة النص الشعري هو تقديم العالم والمعاني والخواطر طبقا لتولدها داخل النفس، إنه منشأ التقابل، غير أنه يتخذ ألوانا متباينة من العلاقات والخطاطات عند تحوله إلى فضاء النص اللغوي والتركيبي، حسب المقصد والمراد، وتبعا لطبيعة العلاقات التي تحكم الأشياء في الكون، وتحكم كذلك طريقة تصور الشاعر لها.

وتبعا لهذه الخطاطات المتشعبة التي تميز ولادة المعاني، تنشأ عند تلقيها خطاطات شبيهة بتلك التي تمت عند الولادة الأولية، لأن القارئ بدوره تحكمه علاقات محددة مع الحياة والكون، والقيم، إلا أنه يترك ذلك، ليلتصق بتصور ورؤية الشاعر، موظفا مرجعية العلاقات الدلالية نفسها التي تحكمت في المنتج. غير أن العلاقات المتجَة من طرف المتلقي قد تنزاح قليلا عما أنشأه الشاعر أو تتطابق معه، أو تتناقض معه، ولكنها حتما تتأسس على خطاطات ذهنية تقابلية، وإن كانت لا تظهر، أو يتم التعبير عنها بمفاهيم أخرى.و لو أُمعن فيها النظر، لوُجِد أنها جزء من التقابلات التي تكوِّن الحياة والوجود في مناحيهما المختلفة.

هبط السفح طاويا من جناحيه

على كل مطمح مقبور

وهكذا، وعلى مستوى صناعة النص والمعنى المراد من طرف الشاعر، "فهبط السفح": أي الحركة النزولية للنسر يقابله ضمنيا معنى

غير مراد وهو "صعد القمة": الحركة الصعودية، وكذا في "طاويا من جناحيه" فهي تقابل معنى غير مراد، وهو ناشرا من جناحيه. وما يتبع ذلك من استسلام لجاذبية الأرض مقابل الاعتماد على الفعل والقوة الذاتية، ثم تتأكد مسارات السقوط والانهيار بجملة "على كل مطمح مقبور". واختيار هذه الجملة دون غيرها يعني إقصاءً لمعنى مقابل وهو "المطمح المأمول"، فالأول يعني ترديا نهائيا وموتا وإقبارا، مقابل المعنى الغائب "المطمح الحي". إن اختيار جملة أو معنى يعني إقصاء غيرها، لكن التأويل التقابلي يبنيها ويستحضرها وإن أُقصيت أثناء صناعة النص، لتتضح المعاني على ضوئها، أو يتم توضيحها للآخرين، وهو إجراء مفيد جدا خاصة في عملية التدريس، وكثيرا ما نشرح الكلمات الغامضة في كل اللغات إما بمقابلها: المرادف، أو المضاد، أو بالمثال...

فتبارت عصائبُ الطير ما بين

شَرودٍ من الأذى ونفور

لو تفحصنا البنية الدلالية للبيت لوجدنا أن عناصر حاضرة وأخرى غائبة تتقابل داخلها، ويمكن إعادة بنائها تأويليا على الشكل التالي (عصائب تتسارع فرارا منه مقابل أفراد الطير التي تتسارع إقبالا عليه)، (شرود:حركة غير قاصدة مقابل الحركة القاصدة)، (نُفورٌ من الأذى مقابل إقبالٌ لانعدام الأذى)، (نسر غير قاصد للأذى مقابل طيور تتوهم الأذى المألوف)، (سبب نزول النسر الحقيقي منتفٍ مقابل سبب النزول المتوهم حاصل) .

يمكننا القول -كما أسلفنا- إن البنية الذهنية والنفسية الكامنة وراء القول وإنتاج الدلالة تحكمت فيها اختيارات إنتاجية، ويستتبع ذلك أن المعاني تنمو بهذا المنطق التقابلي على مستوى الفهم، وبناءً على التقابل المركزي الذي ينبني عليه البيت: (الكينونة/ الظهور) ؛ فالظهور يوحي

بالقـوة، وبالاعتقـادات السـالفة حول خطر النسـر، وقدرته المعروفة في الفتـك بالحيوانـات التـي في مقدوره القضاء عليها، وكذا سـيطرته على مملكة الطيور، فهي لا تقترب من صيده حتى يشبع. هذا الظهور الخادع والـكاذب لا زال يحـرك مملكـة الطيـور للابتعاد عنـه، وهو يخفي باطنا ضعيفـا وهشـا يوضحـه البيـت الموالي، حين يتوجه الشـاعر إلى الطيور فاضحا الأمر:

لا تطيـري جوَّابَـةَ الـسـفح فالنسر

إذا مـا خَبَّرْتِـه لـم تطيـري

وبمكنـة القـارئ أن يبنـي الـدلالات الحقيقيـة أو الرمزيـة اعتمـادا علـى الإمكانيـات التقابليـة التالية: (لا تطيري مقابل طيـري)، (الناهي- الشاعر مقابل المنهي-الطيور)، (الطيور الحقـيقية مقابل الطيور الرمزية)، (جوابة السفح مقابل جوابة الأعالي)، (طيور قوية مقابل طيور ضعيفة)، (النهي الحقيقي مقابل النهي الاستلزامي)، (الخبرة وعدم الطيران مقابل اللاخبرة والفرار من النسـر)، (لأنك لم تخبِّري النسـر طِرْت، مقابل لو خبَّرت النسر لم تطيري) .

يتبيـن مـن هـذا أن المعانـي تنطلق من تقابل نووي كلي أو جزئي، ثـم تتفـرع إلـى تقابـلات فرعية توسـع المعانـي؛ غير أنها كما أشـرنا لا تحضر كلها في البنية الظاهرية، وإنما تسـتحضرها القراءة التأويلية التي تتبنى التأويل التقابلي، وقد تصل إلى النتائج ذاتها دون الوعي بالمفاهيم التي ذكرنا، وإنما نعمل على الإشـعار بها والتأسـيس لها تأسيسـا نظريا وتظهيريا.

نَسَـلَ الوَهَـنُ مِخْلبَيْـه وأَدْمَـتْ

مَنْكِبيـه عواصـفُ المقـدور

والوَقـارُ الـذي يَشـيع عليـه

فَضْلـة الإرث مـن سـحيق الدُّهـور

تتنامى تيمة العجز والتولي في مسار مأساوي متنام ذي نفس قصصي، وهذا من سمات الشعر الرومانسي؛ غير أن ما يعنينا هو الاستدلال على المنشأ التقابلي للتجربة الشعرية، والتنبيه على مناحي جمالياتها انطلاقا من زاوية نظر تأويلية تقابلية، والنص -كغيره- من النصوص يؤكد تصورنا: (الوهن ناسل مقابل المخلب منسول)، (مخلباه مقابل منكباه)، (نسل الوهن مقابل أدمته عواصف المقدور)، (عواصف المقدور تُدمي / مقابل/ المنكبان مدميان)، (الوهن والقَدَر منفذان مقابل النسر متقبل)، (الشاعر عارف بحال النسر الظاهري والباطني مقابل الطير يجهل حاله الباطني)، (الوقار الظاهر متحقق مقابل الوقار الباطني مُنْتَفٍ)، (الوقار الحقيقي موروث مقابل الوقار الوهمي مكتسب)، (زمن النسر مقابل زمن الشاعر) .

إن صناعة الشعر مجال تلتقي فيه التقابلات المؤسِّسة للمعنى، غير أن منها ما يحضر ومنها ما يفسح المجال لغيره لدلالته عليه وقيامه مقامه. وكثيرا ما عولجت عناصر أو سمات الشعرية من زوايا متعددة، وتم التركيز على المستويات اللغوية والإيحائية والانزياحية والتركيبية والإيقاعية، ولم يُنْتَبه إلى سر عميق يشمل العناصر السابقة كلها، وهو التقابلات (الحاضرة / الغائبة)، (الحاضرة/ الحاضرة)، بل إن شعرية كثير من النصوص يعتبر التقابل أول أسرارها،ومبدأ صناعتها وجماليتها وبلاغتها. وهذا ما نحاول توضيحه هنا، وإبراز بعض تشكلاته وكيفيات انبنائه.

وقف النسر جائعا يَتَلَوَّى
فوق شِلْوٍ على الرمال نَ
وعِجافُ البُغاثِ تَدفعُه
بالمِخلِب الغَضِّ والجَناح القَصير

يقدم الشاعر أبو ريشة تجربة النسر في قالب قصصي تتنامى فيه الأحداث، مما يجذب المتلقي لمعرفة نهاية النسر وتفاعله مع ما حوله،

تأثيرا أو تأثرا؛ يقف جائعا هزيلا مترددا وعاجزا على بقايا مأكولات الطيور الصغيرة التي تتأكد أخيرا من ضعفه وعجزه عن الدفاع عن الطعام الحقير (الشلو)، فتبدأ في منازعته ومزاحمته بأجنحتها الصغيرة ومخالبها الغضة. ويكشف انفضاح حقيقة النسر مجموعة من التقابلات البنائية (نصيا) والمبنية (تأويليا) : (وقف مقابل سار)، (جائع مقابل شبعان)، (يتلوى مقابل لا يتلوى)، (شِلو مرمي ممزق مقابل صيد ثمين مكتمل)، (على الرمال مقابل على الجبال)، (مؤاكلة الطيور الحقيرة مقابل مؤاكلة أقوى الجوارح والوحوش)، (الرضى بالحقير من الطعام مقابل البحث عن أفضل الطعام)، (عجاف البغاث دافعة مقابل النسر مدفوع)، (المخلب الغض دافع وهازم مقابل المخلب القوي مدفوع ومهزوم)، (الجناح القصير مسيطر على الميدان مقابل الجناح الكبير متقهقر ومنسحب) .غير أن التحولين اللذين عرفهما مسار حياة النسر: القوة من قبل ثم التحول إلى الضعف يفضيان إلى تحول ثالث:

فسرَتْ فيه رَعْشَةٌ من جنون الكِبْر واهتز هزة المقرور

ومضى ساحبا على الأفق الأغبر أنقاض هيكل مَنْخور

بعد الوضع المهين الذي أصبح عليه النسر واستشعاره لضياع هيبته وعدم فعالية مخالبه، وإحساسه باكتشاف الطيور لضعفه واستغلالها لذلك، انتفضت فيه كبرياؤه. ورغم هزاله لم يرض بغير العودة إلى الأعالي، لذلك يحلق بعيدا وعاليا: (رعشة الكِبْر:عودة الحياة مقابل رعشة الموت:رفض الخنوع)، (اهتز هزة المقرور حاصلة بالفعل مقابل هزة القوي الجبار غير حاصلة واقعيا)، (هزة الإحساس بالمهانة والذل في الحاضر مقابل هزة النخوة والاعتزاز في الماضي)، (حقيقة حاضرة مقابل حقيقة انتهت)، (المضي الثابت مقابل البقاء المعدوم)، (الأفق

الأغبر: عالم الأهوال والضياع مقابل الأفق الصافي: عالم الأمان والوضوح)، (ساحبا أنقاض هيكل منخور مقابل قادما بجسد قوي)، (الحالة الراهنة مقابل الحالة الماضية) ...

لا شك أن الشاعر كان يختار من العوالم المتقابلة داخل الحياة والكون، وداخل مخيلته، وبناء على ما تمده به المعاجم، وما يسمح به النسق الإيقاعي والأبنية النحوية ومستلزمات شعرية النص، ما يؤسس لأفق الدلالة كما يتصوره، وكما يفرضه المقام الشعري؛ فهو ينتقي -داخل هذه القيود والإرغامات- العناصر المتقابلة التي تحضره لحظة الإنتاج وصناعة النص؛ مما يفرض على القارئ بعده نشر الخريطة الدلالية نفسها، ذات الأبعاد المتقابلة التي انطلق منها الشاعر نفسه وطواها ضمانا لشعرية النص واقتصاده. كما أن المقام الشعري وقيود الكتابة لا تسمح بعرض كل الخطاطة الذهنية والتصورية لدلالاته، فيترك للقارئ ملء الفراغات، وإعادة توسيع التجربة الدلالية بما يناسب أدواته القرائية وحدود انتظاراته من النص، ثم بناء العوالم الممكنة والآفاق التصورية التي تنضوي تحتها الدلالة.

وإذا ما أتى الغياهِب واجْتاز

مَدى الظَّن من ضمير الأثير

نطبق على البيت المسار القرائي نفسه في محاولة لكشف البنية الأصل لإنتاج المعنى الشعري؛ وهكذا نجد الإمكانيات التقابلية التالية: (إذا ما أتى: الظرفية الممتدة نحو الزمن المستقبلي مقابل إذ أتى الظرفية الممتدة نحو الزمن الماضي وهي منتفية)، (الغياهب تناسب الأفق الشعري للنص مقابل المواقع المضاءة لا تناسب الاتجاه الدلالي المختار شعريا)، (اجتاز: التحقق المطلوب لنمو النص مقابل لم يجتز: مسار يوقف نمو النص)، (الاستنسار الطبيعي مقابل الاستنسار المصطنع)، (ضمير الأثير: النقطة الدنيا من الابتعاد والحد المرئي مقابل

ظاهر الأثير: النقطة القصوى من الابتعاد والحد غير المرئي) .

يشير البيت لتحول جذري في مسار النسر، وهو التحول النهائي الذي يسعى الشاعر إلى إقامته، وفتح أبواب المعنى عليه، وهو الوصول إلى الذروة، ورفض السفوح، كما أشارت إلى ذلك بداية القصيدة، وهو تحول مقرون بالفعل.

جَلجَلَت مِنْه زَعْقَة نَشَّت الآفاقُ

حَرّى مِنْ وهجها المستطير

وهوى جُثة على الذِّروة الشَّماء

في حُضِن وَكْره المهجور

يختار الشاعر بناء على الإمكانيات المتقابلة التي يمنحها المعجم والتركيب والمعاني الممكنة ما يريده لنسره، وهو: (الجلجلة مقابل الموت في صمت)، (الزعيق الدال على الحياة مقابل الزعيق الدال على الموت)، (الزعيق الحارق المتوهج مقابل الزعيق الطبيعي)، (النزول جثة هامدة مقابل النزول جسدا حيا)، (النزول في القمة مقابل النزول في السفح)، (الوكر المهجور حاضن مقابل النسر المهاجر محضون)، (النسر دون وكر مقابل النسر يملك وكرا)، (الوكر بيت في الماضي/ الوكر قبر في الحاضر)، (اختيار الموت في السفوح مقابل اختيار الموت في القمم) ؛ والمعنى المبني من كل تلك التقابلات: كن أيها الإنسان مثل هذا النسر الرمزي، إذا كان لا من الموت فمت في القمة، ومقابل هذا المعنى نجده عند المتنبي في قوله:

و إذا لم يكن من الموت بُدّ

فمن العار أن تموت جبانا

تشكلت نواة القصيدة من هذا التقابل المُؤَطِّر: البداية نزول اضطراري / النهاية صعود اختياري، وهو وإن بدا صعودا ونجاحا لكنه في الحقيقة نهاية وخسران، غير أنها النهاية التي ارتضاها النسر

الرمـزي ولـم يسـتطعها الشـاعر، خاصـة وأن البيـت الأخيـر يفصح عن تقابـل حقيقـي يختـرق تجربة النسـر، ويقابل بينها وبين تجربة الشـاعر، فـي اختيـار ابتـكاري وصناعي لشـعرية النص ورمزيته، ثـم يفتحها على أبواب الدلالات الممكنة:

أيُّهـا النَّسـر هـل أعـودُ كمـا عُـدتَ

أم الـسفح قَـد أمـاتَ شـعوري

ويمكـن تحريـك آليـة التقابـل لتتضـح الرؤيـة أكثـر، خاصـة وأن البيت الأخير يشـكل مقطعا لوحده، إن لم نقل قصيدة مفتوحة، متشـعبة الـدلالات والمعانـي: (المنـادي: الشـاعر مقابل المنادى عليه: النسـر)، (النداء الحقيقي مقابل النداء الاسـتلزامي)، (الاسـتفهام الحقيقي مقابل الاسـتفهام الاسـتلزامي)، (الشـاعر مقابل النسر)، (النسر مقابل القارئ)، (النسر مقابل الواقع العربي) .

يشكل البيت الأخير -وحده- نصا، إذ فيه تتفجر المعاني على كل الاحتمالات، بناء على تأويل رمزي للقصـيدة؛ فالنسر قد يقابل في الواقع نسرا طبيعيا، أو يقابل معادلا موضوعيا هو الشاعر، أو أي شخص آخر يصدق عليه مسـار النسـر في هبوطه إلى السـفوح ومعاناته من المهانة والـذل، ثـم الصحـوة وتفضيـل الموت في الأعالـي، كما قد يحيل على الأمة بأكملها، في عزها الأوَّلاني، ثم تقهقرها وتراجعها، ثم بحثها عن الأمجاد الغابرة وانتفاضتها بحثا عن المجد والعز.

إن النسـر فـي تحولاتـه القائمة علـى التقابـلات والمفارقات ليس إلا مرآة عاكسـة رأى فيها الشـاعر نفسـه. ومن ثمة فكل التقابلات التي سـبق اسـتخلاصها أو بناؤها يجب التعامل معها رمزيا، بحيث ترمز إلى معطيـات وعناصـر محيطـة بالشـاعر، إنها مؤثثات الحيـاة الحقـيقية. لقد تأسـست تجربة القول في هذا النص على هذه الخصوبة التي يمدنا بها التقابل المعجمي والرمزي والدلالي والسياقي، وهو ما أعطى للقصـيدة

بلاغتها وشعريتها المميزة، فالعالم الشعري الذي تتفاعل فيه هذه الأبعاد بشكل تقابلي بنائي وتأويلي جعل من النص فضاء منفتحا على إمكانيات دلالية عديدة، تفسح المجال أمام تذوق حقيقي أثناء تحليل مكوناته الخطابية، لأن صاحبه عرف كيف ينتقي من العوالم والإمكانيات التقابلية ما يغني تجربته، مع إخضاع كل ذلك لآليات القول الشعري المعروفة من انزياح وأساليب بلاغية وصور شعرية ورموز وبنيات إيقاعية.

على هذا المنوال - وفي جميع النصوص والخطابات- ينبني المعنى وصداه، العالم ومثاله، القول وظلاله، الذات ومراياها وفق تقابلات وتوازيات دلالية حاضرة وغائبة في بنية الخطاب. لذلك فالتقابل بجميع أشكاله وألوانه هو الآلية المحورية التي تصدر عنها الأفكار والمعاني والخواطر، وهي تتخذ أشكالا شتى من العلاقات والتمثلات، لأمر بسيط وواضح هو أن القول إعادة تشكيل للعالم وفق رؤية محددة، ولأن الحياة مبنية على الثنائيات والأزواج، فإنها أخذت طريقها إلى النصوص بكيفية من كيفيات التجلي والحضور، ويأتي التأويل التقابلي ليعيد الأشياء إلى منطلقاتها، مع ما يحصل أثناء التلقي من تذوق وتأثر وتفاعل مع المقروء وتحول في القيم والتصورات حول العالم.

الفصل الخامس

التقابل بين الخطابات التأويلية

قراءة الكَرامَة الصوفية عند مفتاح و كِليطو[1] نموذجا

تقديم

يرتبط التأويل بالمعرفة من زاويتين: زاوية البحث في موضوع ما عن حقائق أو معارف مجهولة لدى المؤَوِّل، حيث يشرع في التنقيب عنها يدفعه إلى ذلك إحساسه بغرابتها، أو حاجته إليها لغاية دينية أو دنيوية؛ إنها معرفة هدف لذاتها.أما الزاوية الثانية فهي التي يرتبط فيها الفعل التأويلي بمعرفة يمتلكها المؤَوِّل،أي مجموع العناصر والأدوات التقنية،والعلوم المرجعية، والمسارات التحليلية التي يستعين بها للتعامل مع موضوعه التأويلي باحثا عن ضالته، فهي معرفة أداة، ووسيلة لاكتشاف معارف جديدة، ستصبح فيما بعد وسائل تمهد له السبيل لمعرفة أخرى تكون موضوع بحث جديد.

من هنا فتجربة التأويل هي دوران لولبي بين المعرفة الأداة والمعرفة الموضوع، للوصول عبر النصوص إلى حقائق الظواهر من حولنا. إن كل خطاب تأويلي هو نتاج تفاعل حقيقي بين المؤَوِّل وموضوعه، نصا كان أو ظاهرة من الظواهر، إنه اشتغال يسعى إلى امتلاك معرفة ما، أو الإجابة عن أسئلة مقلقة، أو تدبير افتراضات أو تخمينات أو حدوس

(1) ناقدان مغربيان معاصران معروفان بأبحاثهما الأكاديمية، لهما إسهامات كبيرة في حقل الدراسات التأويلية. سيتم التعريف بجوانب من منجزاتهما ضمن مواد هذا الفصل.

معينة. ولابد أن يخترق هذا التأمل التأويلي ظواهر الأشياء نحو موازياتها الباطنية، بعد امتلاك معرفة-أداة تكفي لإضاءة مجاهل الطريق وتجاوز العوائق.

نود في هذه المقاربة القائمة على التقابل أن نسهم في تجلية جانب هام من جوانب الممارسة التأويلية التي تتخذ موضوعا لها الظواهر النصية، وهو تساند الآليات القرائية النصية وموازياتها السياقية في أي استعمال تأويلي، وهو ما كشفنا عنه في تحليلنا لخطابات تفسيرية عديدة،وأخرى متعلقة بالشروح الشعرية.ونقدم هنا مقاربة لخطابين يؤولان نصين منقبيين (كرامتين صوفيتين)، وهما لباحثين مغربيين معاصرين:الأول عبد الفتاح كِليطو والثاني محمد مفتاح، وذلك لتأكيد الطرح الذي ندافع عنه وهو أن التأويل مجموعة أفعال تساندية تتبادل العون،وينفتح على بعضها البعض، خالقة ما يشبه ورشة عمل قرائية، هي منطلق الفهم والإفهام، إذ إن كل تأويل هو تعرف على المؤشرات البنائية النصية: لغة،وتراكيب نحوية، وبلاغية، وعلامات،ورموز.وبعدها يتم الانفتاح على قنوات سياقية خارجية،تمد بها العلوم المرجعية، مثل علم اللغة وعلم النحو وعلم البلاغة وعلم العلامات وعلم التاريخ وعلم النفس والنصوص الغائبة وملابسات وظروف إنتاج النص، وكل مادة لها سبيل للدخول إلى فضاء القراءة التأويلية،لرفدها ودعمها وتوسيعها وإغنائها.

نهدف من وراء هذا الطرح اقتراح تأويلية بديلة للمنهج الأحادي، موجودة في الخطابات التأويلية، قديمة وحديثة، فللنص دوما امتدادات فيما هو خارج عنه، وكل عمل تأويلي هو تأسيس لجسور واصلة بين مقومات الدلالة في النص وبين كياناتها المختلفة خارجه، وعليه يكون الاشتغال التأويلي في تساند آلياته بحرا للمعنى تسبح فيه جزائر الثقافة المختلفة، بما فيها "جزيرة" النص و"جزائر" موازياته الخارجية، من

علوم ينفتح عليها المؤَوِّل، وخطوات منهجية وأفكار وتصورات، في الحدود التي تخدم القراءة وتحافظ على انسجامها.

ومعنى هذا أن هناك قيودا وضوابط عاصمة من الهذيان، منها الأعراف والمواضعات اللغوية، وانسجام المعاني المبنية مع قصدية النص، ومع ملابسات السياق المؤَطِّر لتجربة الإنتاج وحدود التعاقد التأويلي الذي يحدده النسق الثقافي العام، أو العلم المتخصص بالمجال الذي يتم فيه التأويل والفهم.

ولتأكيد ما سبق سنحاول الوقوف على الآليات المضمرة العاملة في تأويلية النص المنقبي، عسى أن تُبنى منها ملامح نموذج قرائي، يحررنا من قواعد مؤسسة المنهج الصارمة والتي تُوظَّف، في بعض الأحيان، قسرا على أنظمة النصوص.

1- حدود النص

مفهوم النص شائك وملتبس وعائم، قُدمت بصدده تصورات متباينة، وذلك لارتباطه بحقول معرفية مختلفة، من لسانيات وسيميائيات ونظريات نصية. وهو مفهوم يثير مفاهيم مجاورة له، مثل الخطاب، والأثر الأدبي، وإشكالية النصوص الشفوية وغيرها.

1-1-النص والخطاب

انطلقت تحديدات الغربيين للنص من دوافع وموجهات عديدة، ولذلك تباينت تعريفاتهم؛ وسنحاول أن نعرض بإيجاز لبعض تلك التصورات، سواء التي تعتبر النص والخطاب شيئا واحدا أو التي تفصل بينهما فصلا تاما.

نجد في معجم كريماس وكورتيس التحديدات التالية[2]:

(2) A.J. Greimas et J.Courtes, Sémiotique dictionnaire raisonne de la-1 théorie du langage, Hachette Université, Paris, 1979, p. 390.

أ- إذا اعتبرنـا النـص ملفوظـا فإنـه يختلف مع الخطاب تبعا لمادة التعبير المـستعملة: الخطية في النص، والصوتية في الخطاب.

ب- يُستعمل النص مرادفا للخطاب، وبالتالي لا نجد أي اختلاف بين سيمياء النص وسيمياء الخطاب.

ج- يُعرف النص من منظور لساني بأنه مجموع السلسلة اللغوية غير المحدودة، وهو اختيار لوحدات معينة وإعادة لها.

د- يستعمل مصطلح النص بمعنى المتن، عندما يكون الموضوع المختار مجموعة من الوثائق المعروفة أو الشهادات أو عمل كاتب.

يتضح من الإشـارات السـابقة أنها لا تلغي التطابق بين المفهومين (النص-الخطـاب)، مـن حيـث كونهمـا ممارسـة دالـة على الاسـتعمال اللغـوي،أو يمثـلان مجموعـة مـن المقـولات اللسـانية التـي تتخـذ متنا للتحليـل. إلا أن التحديـد (أ) يشـير إلـى مسـألة الاختـلاف بيـن النص والخطـاب، بنـاء علـى مـادة التعبيـر الخطيـة فـي النـص والشـفوية فـي الخطاب. إن النص مفهوم مجرد يحيل إلى الأنظمة اللسانية بمستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية، إنه متتالية جملية مرسلة بين بياضين دالين، بين وقفتين تواصليتين، أما الخطاب فندركه من منظور الإوالية الخطابية التي تحكم سياقه.

ضمـن هذا التصور، تميز كريسـتيفا بيـن النص والخطاب، اعتمادا علـى مفهـوم البنيـة؛ فالنـص ممارسـة دالـة وصيـرورة لإنتـاج المعنـى، فهـو يُـدرَس باعتبـاره تبنينـا[3]، أي جهـازا لإنتاج وتغييـر المعنى، لا بنية جاهـزة للمعنـى فحسـب.هذا التمييز بين النـص والخطاب نجده كذلك عنـد "ليـتش" و"شـورت" مـن خلال تفريقهما بيـن بلاغة النص وبلاغة الخطـاب، بنـاء على وظائفهما: الخطاب:وظيفة تواصلية، والنص:وظيفة

---

(3) انظـر أحمـد اليابـوري، ديناميـة النـص الروائي،منشـورات اتحـاد كتـاب المغرب، الرباط، ط.1، ص. 15.

نصية[4].

إن النص مُـجَّل من حيث هو تجل خطي، وهذه الخاصية الخطية هي التي تسـمح بفك شـفرته ومواده اللسـانية، ويقيم "فان ديك" تمـيزا واضحـا بيـن المفهوميـن؛ فالنـص هو البناء النظـري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطابا[5]، فهو وحدة مجردة لا تتجسد إلا عبر الخطاب كفعل تواصلي وإنتاج تلفظي ونتيجة مسموعة ومرئية لهذا الموضوع التجريدي الذي هو النص.

إن تحديد مفهوم النص يكاد يكون عتبة ومدخلا ضروريا، عند كل من يريد تناول قضية نظرية، أو معالجة نصية وفق تصور منهجي محدد، فهو محور أي تنظير للأدب أو النقد، وهو موضوع الممارسـة التأويلية كذلـك. وتبعا لاختـلاف التصورات والمنطلقـات المعرفية والأيدلوجية والمنهجية، اختلفت تحديداته،وكل مُنَظِّر أو مؤَوِّل يحاول أن يوسع أو يُكيِّف المفهوم ليـستجيب لقضاياه النظرية والإجرائية كما سنرى.

1-2- النص واللا نص

إذا سـلمنا بمـا سـبق، فـإن كل ما هو مكتـوب يُعَد نصا، فالإعلان والمـادة الإشـهارية والمثـل والتعليـق الرياضـي المكتوب أشـكال نصية

(4) قدم الأسـتاذ سـعيد يقطين إشـارات مفيدة في هذا الصدد في كتابه: انفتاح النص الروائي (النص - السياق) المركز الثقافي العربي، بيروت - البيضاء، ط.1، 1989، ص.17.

(5) محمـد خطابـي، لسـانيات النص،مدخـل إلـى انسـجام الخطـاب، المركـز الثقافي العربـي، بيـروت، البيضـاء، ط.1، 1991، ص. 28. ولمـن أراد التوسـع أكثر يمكنه الاطـلاع علـى: حسـين خمـري، نظريـة النص من بنية المعنى إلى سـيميائية الدال، الـدار العربية للعلوم، بيروت ومنشـورات الاختـلاف، الجزائر، ط.1، 2007. وكذا محمـد الأخضـر الصبيحـي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2008.

كذلك؛ من هنا فإن خاصية الكتابة فيما يبدو غير كافية للتميز بين ما هو نص وما ليس كذلك. نحتاج إذًا إلى عناصر ثقافية مميزة، فالكلام شفويا كان أو كتابيا لا يأخذ بعده النصي إلا داخل ثقافة معينة، بحيث ينضاف إلى المدلول اللغوي مدلول ثقافي. يتمتع النص بخاصيات إضافية وتنظيم فريد يعزله عن اللانص[6]. ولا يعني هذا أن ما ليس نصا هو شكل لغوي مشوش وفوضوي، إذ يمكنه أن يتوفر على تنظيم معين، إلا أنه تنظيم لا يحمل بعدا ثقافيا، أي لا تنطبق عليه مجموعة من الخصائص النوعية، فنية وجمالية والتي اتُّفِق على كونها معيار النصية من اللانصية داخل نسق ثقافي محدد.

وتأسيسا على ذلك فما يمكن أن يعتبر نصا عندنا، قد لا يعتبر كذلك عند غيرنا، فـ"ألف ليلة وليلة" مثلا لم يكن كتابا معترفا بنصيته في الثقافة العربية القديمة،كما أن كثيرا من النصوص لا يعترف بنصيتها إلا إذا كانت صادرة عن مؤلف مشهود له بإنتاج النصوص، وهو ما يسميه كِليطو بـ"المؤلف الحُجَّة"[7]. من هنا نفهم دعوة جان مولينو[8] إلى تشييد نظرية أدبية عامة تضع على المستوى نفسه كُلاًّ من الأدب الشفوي والأدب المكتوب، فالقول بنصية المكتوب ولا نصية الشفوي جعله يدعو إلى المحافظة على الطرفين معا، إذ إن الأنواع المكتوبة هي استمرار للأنواع الشفوية. ومن وجهة نظره، فإنه لا يمكن فهم الملحمة بعزلها عن منابعها الشفوية. وعليه فإن علم نصوص الأدب المكتوب وعلم خطابات الأدب الشفوي يتأسسان داخل معرفة شاملة بالإنتاجات اللسانية.وإذا كان لابد من التفريق بين النصوص المكتوبة والخطابات

---

(6) للتوسع ينظر، عبد الفتاح كِليطو، الأدب والغرابة،دراسات بنيوية في الأدب العربي،دار الطليعة، بيروت، ط.1، ص.14.

(7) المرجع السابق، ص.16.

(8) Jean Molino, interpréter, dans l' interprétation des textes, ed. Minuit, Paris, 1989, p.40.

الشفوية، فيجب البرهنة على أن الخاصيات الأساس للشكلين متباينة.

إن فرضية التميز بين الشكلين لا أساس لها في نظره، لأنه لا يوجد فرق بين مثل شفوي ومثل مكتوب،وليس هناك أي تعريف يمكن تطبيقه على نصوص مختلفة كل الاختلاف كنص تراجيدي لراسين، مقال رياضي في جريدة أو تقرير عن ظاهرة بيولوجية مثلا، مما دفعه إلى الخلوص إلى أنه ليس هناك تعريف عام للنص.

1-3- النص والأثر الأدبي

إذا كانت كريستيفا قد حاولت صياغة رؤية كلية للنص، نسقية ومتحررة وبنيوية ووظيفية ونظرية وإجرائية،ساعية إلى بناء علمية النص[9]، باقتراح نظرية له عبر مفاهيم الممارسة الدالة والإنتاجية والتدليل والتناص والنص الظاهر والنص المولد،وكان "جنيت" قد طرح بدوره مجموعة من المفاهيم المرتبطة بالنص: التناص، ما وراء النص،جامع النص، النص الأعلى... فإن رولان بارت طرح مفهوم النص وأظهر تمايزه عما يسميه الأثر الأدبي، اعتمادا على مفهوم اللذة، وأساس تصوراته هو استعباد كل ماله علاقة بالأثر الأدبي. وقد بيَّن في كتاب "درس السميولوجيا" الحدود بينهما انطلاقا من العناصر التالية:المنهج والأجناس والدليل والتعدد والسلالة والقراءة واللذة[10].

ليست الأسبقية الزمنية أساسا للتميز بين النصوص والآثار الأدبية، فالنصوص لا ترتبط فقط بالفترة المعاصرة،كما أن الآثار القديمة تتضمن نصوصا، وكثير من الأعمال المعاصرة لا تعد نصوصا، وبالتالي فما يميز

(9) ينظر جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال،الدار البيضاء، ط. 1، 1991، ص.13.

(10) رولان بارت، درس السيمولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1986، ص. 60.

بينهما هو أن الأثر الأدبي قطعة مادية تتناولها اليد، وهو من الناحية المنهجية قابل للتصنيف والتجزيء، في حين أن النص تتناوله اللغة وهو غير قابل للتجزيء والتصنيف.

على مستوى النوع، يتموضع الأثر ضمن حدود معروفة تسهل تصنيفه، وينحصر في مدلول محدد. أما النص فهو خارج التجنيس، يمارس لعبه ومراوغته لقوانين اللغة.

ويخضع الدليل في الأثر لمنطق غير رمزي أحادي وقابل للتأويل، أما النص فهو قائم على الرمزية وتعدد المعنى، لذلك فهو دائما مجاز وانتقال.

يحترم الأثر سلالته بانتمائه لمؤلفه، أما النص حسب التصور البارتي دائما، فهو يثور على سلطة الأب، غير قابل للتحديد. وترتبط قراءة الأثر بلذة الاستهلاك، أما النص فلذته في إعادة كتابته، حين تنصهر الآفاق الإنتاجية والتقبلية،وتندمج القراءة والكتابة في ممارسة واحدة دالة.

تتحقق النصية لدى بارت عبر مفهوم آخر وهو الكتابة، من حيث هي ممارسة قائمة على البحث عن المعاني المجازية، والقصد إلى اللعب واللاتواصل والخلخلة والتشويش والنشاط الرمزي وفعل اللذة. لا نحصل من كل هذه التميزات التي أقامها بارت بين النص والأثر الأدبي على تعريف دقيق قائم على أسس بنيوية، ومعايير فنية نميز بها النص عن اللانص؛ وتلخص هذه الفقرة من حواره مع موريس نادو إشكالية تحديد النص: "إن النص ما يزال يبحث عن ذاته، فقد اتخذ في البداية معنى سجاليا، وحاولنا مقابلته مع مفهوم الأثر، الذي بلي وتشوه، ومع ذلك فلا أعتقد أن بإمكاننا حاليا تحديد كلمة نص، إذ سرعان ما نجد أنفسنا عرضة للنقد الفلسفي للتعريف، كل ما إمكاننا الآن هو أن

نعمل على التقريب المجازي لمفهوم النص"[11].

وبناءً على ما سبق، فإن تحديد بارت للنص يقوم على تصوره الشامل للأدب، والنقد والكتابة والقراءة من خلال مفهوم اللذة، أكثر مما هو تحديد يرتكز على المستويات البنائية والجمالية والخصائص النوعية المفروض الاعتماد عليها.

1-4- مرونة المفهوم وإمكانات التكييف

في ظل الاعتبارات السالفة، فإن مفهوم النص يبدو مرنا، وقابلا لإدخاله ضمن تصورات نظرية ومنهجية مختلفة، تبعا لأهداف المُؤوِّل، وكذا موضوع الاشتغال والمرجعيات المعتمدة.ونقدم فيما يلي نموذجين تعريفيين لمفهوم النص لكل من سعيد يقطين ومحمد مفتاح، لإظهار حدود التوسيع والتكييف.

يقول يقطين: "النص بنية دلالية تنتجها ذات فردية أو جماعية، ضمن بنية نصية منتجة، في إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة"[12].

يتخذ هذا التعريف من النقد السوسيولوجي مرجعا له، في بعديه البنيوي والإنتاجي، وهو تعريف جد متماسك في حدود الظواهر النصية المدروسة، وخطة العمل الكلية؛ فالنص بنية دلالية، من حيث انبناؤه على دوال ومدلولات، وتضمنه بنيات صرفية ونحوية وبلاغية قابلة للملاحظة والوصف. كما أن البنية النصية مشكلة من مجموع بنيات جزئية داخلية، وهو منجز داخل بنية نصية كبرى، تتفاعل فيها النصوص وتتقاطع وتتناص، وهي البنية الثقافية والاجتماعية.

أما البعد الإنتاجي في هذا التعريف، فيتمثل في كون العلاقات بين هذه البنيات قائمة على التفاعل والصراع، والبعدان البنيوي والإنتاجي

(11) رولان بارت، م. م ص. 65.

(12) سعيد يقطين، م. م، ص 17.

يحققان للنص انفتاحه وديناميته وتفاعله مع نصوص أخرى، أو بنيات ثقافية واجتماعية.إن التعريف هنا محكوم بتصور السوسيو- سرديات على ثلاثة مستويات:البناء، والتفاعل، والبنيات السوسيو-نصية؛ وهو منسجم مع الجهاز النظري والمنهجي الذي يصدر عنه، ويهمنا هنا إيضاح قابلية المفهوم للتكييف والتوسيع.

أما محمد مفتاح فيعرف النص بأنه "مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة".[13] يؤكد هذا الباحث أن كل تعريف للنص يعكس توجها معرفيا ونظريا ومنهجيا معينا، وهو لا يتبنى تعريفا لسوسيولوجيا الأدب، أو للنظرية البنيوية، أو لتحليل الخطاب... وإنما يعتمد التركيب بين اقتراحات مختلفة لاستخلاص المقومات الجوهرية الأساس[14]؛ فالنص مدونة كلامية،أي أنه كلام وليس إشارة أو حالا ناطقة، وهو حدث مرتبط بالزمان والمكان المحددين، يهدف إلى التواصل، وهو تفاعلي إذ يقيم علاقات تفاعلية بين أفراد المجتمع، وهو نظام منغلق خطيا، أي له بداية ونهاية، ويوجد بين بياضين دالين. ثم هو توالدي،أي أن الحدث اللغوي فيه نتاج أحداث تاريخية ونفسية ولغوية. هذه العناصر التعريفية للنص تنسجم مع الأطر النظرية والمنهجية المتحكمة في اشتغاله على نموذج شعري قديم وهو رائية ابن عبدون الشهيرة.[15]

جاء التعريفان في سياقين تمهيديين لقراءة وتحليل نصوص أدبية: الرواية عند يقطين، الشعر عند مفتاح، تَمَّ نحتهما وتوسيعهما ليلائما

(13) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط.2، 1987، ص. 119.

(14) نفسه، ص.118.

(15) انظر كذلك محمد مفتاح، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط.1، 1999، حيث تناول الباحث مفهوم النص في الثقافة اللاتينية والثقافة الإسلامية من خلال الأبعاد التالية: النص نسيج، النص وثاق، النص منصة، النص كتاب، النص كلام... ص.16 وما بعدها.

الموضوعـات النصية المسـتهدفة، غيـر أنهما يمتدان ليطولا غيرهما مما لم يُعترف بنصيته بعد:الإعلامات،المدونات التاريخية،المناقب،الأمثال... وكل الأشكال التي لا تدخل ضمن الأجناس الأدبية المعروفة،والمحددة بسماتها الجوهرية في نظرية الأدب.

وسـواء اعتبرنـا النـص بنيـة دلاليـة أو مدونـة حدث كلامـي، فإن ذلـك لا يمنـع مـن اعتبـار ما ليس أدبا نصوصا، وهكذا يتبدى أن مفهوم النص أوسـع بكثيـر من مفهـوم النوع الأدبي، فهو قابل للتمطيط ليسـع الأدب واللاأدب، والمدونات التاريخية، والفلسـفية، والتعاليق، والمواد الإشهارية المكتوبة، والتقارير...

وبنـاء علـى ذلـك، يجـب أن ينظـر إلـى النص على أنـه بنية لغوية متـــقة ذات صناعـة أدبيـة ونسـج جمالـي، موجهة إلى متلـق، ووراءها منتـج لـه مقاصـد معينـة، وهـي قابلـة للفهم والتأويـل بأشـكال متباينة، وفـي مقتضيـات أحـوال مختلفـة. أما الخطاب فهو النـص المتداول في مقتضيـات تخاطـب معينـة: زمـان ومكان ومرسِـل ومرسَـل إليـه، وكذا مجمـوع العلاقـات الموجودة بيـن العناصر الخارج-لسـانية. وباختصار فالخطاب هو النص داخل أحوال تخاطب معينة.

ومن هنا نبع التمييز عند بعض الباحثين بين المعنى من حيث هو حقيقة نصية، والدلالة باعتبارها حالة خطابية. يرى "إي دي هرش" أن المعنـى هـو "مـا يمثله نص ما، ما يعنيه المؤلف باسـتعماله لمتوالية من الأدلة الخاصة، هو ما تمثله الأدلة، أما الدلالة فتعني العلاقة بين المعنى وشخص، أو مفهوم، أو وضع، أو أي شيء يمكن تخيله"[16].

ينسـجم التوسيع الذي يقبله النص مع أفق البحث والدراسـة التي تتخـذ موضوعـا لهـا كل الظواهـر المعتبـرة أدبـا وغير المعتبـرة كذلك،

---

(16) P.D.juhl, interpretation, an essay in the philosophy of literary criticism New jersy, 1980, p. 27.

شـأن المناقـب مثـلا. وهكـذا فإن خاصية النصيـة وانبناءها على الأدبية، هي محصل إجماع أو شـبه إجماع داخل نسـق ثقافي محدد، والهامش الذي يسمح به انفتاح مفهوم النص، يفتح المجال واسعا لدراسة ظواهر نصية متباينة، شأن المناقب كما سنرى.

2 – النص في مرايا السياق

2–1– تأويلية النص المنقبي الصوفي عند كِليطو ومفتاح

يتخـذ خطـاب التأويـل مـن نصـوص سـابقة موضوعا لـه، وجوده مرتبـط بوجـود موضوعه، فهو مرجعه الأسـاس ومنطلقـه، ووظيفته هي وصفـه وتأويلـه، ونقـل تجربـة تأويليـة وقرائيـة مـن مجالهـا الذاتي إلى مجال تداولي أوسع، حيث تصبح بدورها موضوعا للتأويل.والنموذجان المختاران للمقاربة هنا يُعدان من الأمثلة القليلة التي اهتمت بالنصوص المنقبيـة قراءة وتحليلا، وذلك استنادا إلى تصورات تأويلية حديثة، وإلى خبـرة تأويليـة عملـت على اسـتقصاء الأبعـاد الدلاليـة والرمزية للنصين المدروسـين، عبر استحضار كل الأشكال المعرفية الخارجية والمنهجية التي من شأنها إغناء الفهم.

النمـوذج الأول ورد ضمـن كتـاب "الحكايـة والتأويـل"[17]، والثانـي ضمـن كتـاب "مجهول البيـان"[18]، وموضوع اشـتغالهما منقبتان مختلفتان، الأولى لأبي سهل القرشي، والثانية لأبي يحيى بن لا الأذى الرجراجي، مأخوذتان معا من كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات[19].

(17) عبد الفتاح كِليطو، الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.

(18) محمد مفتاح،مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء، ط.1، 1990.

(19) ابن الزيات، التشـوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السـبتي، تح: أحمد التوفيق، 1984.

نهدف من وراء دراسة وتحليل هاذين الخطابين التأويليين اكتشاف الآليات العاملة فيهما عبر إحداث التقابل بينهما،والوقوف على إجراءات الفهم وثوابته،وإمكانيات بناء المعنى في بعديه النصي والسياقي، في حدود تساند وتعاون مواد النص المنقبي مع مواد خارجية سياقية،والمسالك العبورية التي يمهدها كل مؤَوِّل بين أنظمة النص اللغوية، والرمزية، والبلاغية، وبين كل الموازيات السياقية التي يتبين للمؤَوِّل أهميتها في رفد وبناء المعنى وتشكله. وفي كل الحالات فإن إستراتيجية النص- السياق لا تعمل لوحدها، فللمؤَوِّل دوره البارز في إعداد خطة القراءة والتصريح بها أو عدمه، وفي السهر على تطبيقها، ومراقبة عمليات العبور والانفتاح، وتحمل أعبائها وتبعاتها في كل الأحوال.

2-2- تعريف المنقبة

2-2-1- المنقبة شكل سردي يحكي عن حياة أشخاص مخصوصين بالقدسية، وعن كراماتهم وخوارقهم، وهي شكل من أشكال الترجمة أو بيوغرافيا خاصة بشخص معين، في مكان وزمان محددين. غير أنها تفتقر إلى التوثيق المضبوط الذي في تراجم الشخصيات التاريخية مثلا، وذلك لاستناد هذه الأخيرة على وثائق وعلى أسلوب دقيق في صياغتها، بخلاف المنقبة التي تعتمد على الرواية الشفهية، مما يعرضها للتحريف أكثر،كما تغيب فيها التراتبية الزمنية التي نجدها في التراجم، حيث تركب وحدات السرد بطريقة غير خطية. كما أن السرد في المناقب يعتمد على معجم صوفي أو ديني في الغالب، وترتكز صياغتها على الرمزية وأساليب البلاغة لتغيير سلوك المتلقي بالإقناع أو الترهيب.

2-2-2-المنقبة فضاء لالتقاء نصوص مختلفة، ومظاهر شكلية معروفة في أنواع نصية أخرى، فهي تلتقي مع الترجمة في سرد حياة

شـخص مـا، وتلتقـي مـع علم الحديث فـي اهتمامهـا بالرواية، ذلك أن راوي المنقبـة يحـرص علـى ذكـر سلسـة رواتهـا ومَتْنها، وهـي خاصية جوهرية في رواية الحديث، إذ على ذلك تبنى صحته أو كذبه.الأمر نفسه فـي أدب المناقـب، حيـث يحرص المترجم على ضبط النص وسلسـلة رواته،ويسـعى للأخذ ما أمكن عن الثقاة،فيذكر سلسـلة الإسـناد،ويدقق فـي الروايـة الأرجـح. كمـا لا تخلو المناقب أيضا مـن خصائص أدبية، فهي تسـتعير من الأدب شكل السرد الحكائي وقوانينه الأدبية مثل النثرية والسجع واللغة الشعرية أحيانا [20].

وهكـذا فـأدب المناقب مجال لتقاطع حقـول معرفية مختلفة:دينية وتاريخية وأدبية.

2-2-3- إلـى جانـب الخاصيـة الحواريـة التـي تمتـع بهـا المناقب،فهـي تعكـس علـى المسـتوى البنائـي جانبيـن مختلفين:الواقع الظاهـري، والرمـزي الإيحائـي الإشـاري.وبقدر ما تنتفـع من الموروث الدينـي فـي صياغـة عوالمها، تنتفع من الأدب الشـفهي الذي تأخذ منها صفات أبطالها،وطابعها الشـفهي، وهو ما يتيح لها التداول والاستمرارية والشيوع.

كما أنها تتميز بالعجائب[21] وخرق السنن، ووجودها ليس اعتباطيا، وإنما يرتبط بوظيفة ظاهرية أو خفية، فاعتمادها على الخوارق وتحدِّيها للسنن يعكس بحث الصوفي عن وسائل التغلب على النقص أو العجز الـذي يعيشـه فـي عالمه الواقعي، سـواء مع ذاته أو مـع مجتمعه، أو مع السـلطة السياسة أو أي سلطة أخرى، وذلك بخلق عالم خيالي يفجر فيه

(20) للتوسـع في هذا ينظر Houari Touati, les modèles d' ecriture des manaquib maghrèbines, dans: Histoire et linguistiques- oeuvre collective – université, mohamed 5, Rabat; 1992. p. 57.

(21) علـي زيعـور، الكرامـة الصوفية، الأسـطورة والحلـم، دار الطليعـة، بيروت، ط.1، 1977، ص.25.

توتـره وصراعاتـه الداخليـة؛ بل إن هَمّ الصوفي يمكن أن يعكـس بعض هموم جماعته في واقع معين.

2-2-4- تحتوي المناقب على عناصر بنائية مشـتركة، قائمة على اللغـة التـي هـي مفتاح ولـوج العوالم الباطنية للمنقـبة؛ وهي لغة مكثفة ومكتنزة بالإشارات والمصطلحات والرموز، إنها "لغة غير شائعة، مثيرة للدهشـة وعـدم الرضـى، تصدم الحس المألوف، فليـــت المصطلحات وحدهـا جديـدة، بـل إن الكلمـات تأخذ وظيفة مختلفـة ومعان جديدة. يبعـث الصوفـي للكلمـة العادية التي يسـتعملها الناس روحا واتجاها لم يكونا فيها من قبل، ويحملها مهمة نقل ما لا يُنقل بالكلام الآخر، وتعبير ما لا يُعبر عنه"[22].

إن المنقبـة ليـــت مجـرد قصـة أو خرافـة، بـل هي لوحـة مملوءة بالألغـاز، تختصـر نظـرات مجتمعها إلى الكون والإنسـان، ومن ثم فهي ليـــت لعبـا لغويـا أو صياغـة لعوالـم خرافية الهدف منهـا الترويح على النفس، بل تخفي في ثناياها فلسفة خاصة بأصحابها للإنسان والوجود، وانطلاقا من العالم الظاهري المدرك عبر اللغة، ينبني عالم باطني عميق تكتشفه النظرة المستقصية المؤَوِّلة التي لا تقف عند حدود الظاهر، وإنما تجعله وسيلة ومَعْبرا إلى مكنون أصداف اللغة، وهذا ما يجعل المناقب قبلة للتأويلات، وأرضا بكرا للفهم وتجريب إجراءات قرائية متباينة.

يقتـرح علـي زيعـور في كتابـه "الكرامة الصوفية" عناصر مسـاعدة لتأويـل النـص المنقبـي، وهي التقليص، والتضخيـم، والاختيار؛ ويقصد بالتقليـص اختـزال المنقبـة إلـى عناصـر تكـون مدخلا للقـراءة والفهم. أمـا التضخيـم فهـو البحـث عـن الرمـوز ودلالتها، بحيث نعـزل عنصرا محددا تـــهيلا للدراسـة، ونجمـع الحوادث التاريخيـة والحضارية التي تقـدم لنـا إضـاءات مفيـدة، ثم نقارن بين الاسـتعمالات المختلفة له في

---

(22) المرجع السابق، ص.47.

الشعر والقصص وغيرهما. يمكن إذًا تحيين السمات أو المقومات البنائية النصية:لغة، ورموزا، وتراكيب غامضة، واستعارات وغيرها اعتمادا على موازيات سياقية خارجية، في شكل أخبار، أو معارف، أو نصوص، أو غيرها، وهو اشتغال إستراتيجي في كل ممارسة تأويلية سميناه "التساند"[23].

بعد التقليص والتضخيم نقوم بعملية الاختيار والتصفية، حيث يتم الترجيح بين الإمكانيات التأويلية التي يمنحها لنا فتح النص المنقبي على عناصر من الثقافة والموسوعة والتاريخ. نجد في كتاب "التلقي والتأويل" لمحمد مفتاح[24] ما يقترب من هذه الإجراءات القرائية، فهو يتحدث عن التكثيف والتمطيط، ويرى أنهما آليتان متلازمتان تتحكمان في فضاء كل خطاب. ويقف في تحليله لنصوص منقبية عند حدود هذا التكثيف والتمطيط؛ فالتكثيف تركيز واختزال لما كان موسعا بالإشارة إليه، والتمطيط هو توسيع نوى دلالية باعتبارها رحما لما يحيط بها. ويضيف آلية أخرى وهي التزيُّد، ويقصد بها الإتيان بمعلومات جديدة عبر الانفتاح على مستويات السياق الخارجي التي بإمكانها دعم القراءة.

وهكذا فسواء استخدمنا آليات التقليص والتضخيم والاختيار، أو التكثيف والتمطيط والتزيُّد، فإن هذه الاقتراحات تزكي ما نطرحه من أن أفعال التأويل تؤوب في النهاية إلى مستويين بارزين وهما: النص والسياق، بدءا بالتعرف على المستويات البنائية في النسيج النصي، ما وضح منها وما غمض، ويتم طرح فروض استكشافية بصددها، وتحديد

---

(23) انظر محمد بازي، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، مذكور.

(24) محمد مفتاح، التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1994.

البنيات المعتمة: لغوية أو نحوية أو بلاغية أو رمزية، من أجل إيجاد تخريجات دلالية لها، بناء على العلوم المرجعية للقراءة، وكذا ما تقدمه الموسوعة والتاريخ، ويتم الترجيح بين التأويلات الممكنة لاختيار أكثرها مقبولية وانسجاما، من سياق إنتاج النص المنقبي ومقاصد صاحبه، وآليات التدليل فيه.

3 - تأويلية كِليطو/مفتاح

3-1- كِليطو مؤوِّلا

يُعد عبد الفتاح كِليطو من المؤولين والباحثين المغاربة البارزين في حقل السرديات العربية القديمة، دارس شغوف بالبحث عن النصوص المتمنعة، ومتتبع صبور في استنطاق رموزها ومضمراتها.له في هذا المجال مجموعة هامة من الكتابات: "الأدب والغرابة"[25]، "الكتابة والتناسخ"[26]، "الغائب"[27]، "الحكاية والتأويل"[28]، "العين والإبرة"[29]، "لسان آدم"[30]...

يتبين للمطلع على هذه الكتب أن صاحبها ينطلق من هم معرفي وتأويلي عميق، وهو إخراج النصوص السردية التراثية من الظل، وقراءتها بتأن وروية، فهو يتحفز للعمل كلما أحس أن كاتبا يخفي عنه

(25) مرجع مذكور.

(26) عبد الفتاح كِليطو، الكتابة والتناسخ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط. 1985.

(27) عبد الفتاح كليطو، الغائب، دراسة في مقامة الحريري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.1987.

(28) مرجع مذكور.

(29) عبد الفتاح كِليطو، العين والإبرة، ترجمة مصطفى النحال، الفنك، الدار البيضاء، ط 1996.

(30) عبد الفتاح كِليطو، لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1995؛

شيئا، فيبحث عن رأس خيط التأويل، عن علامة ونقطة انطلاق، ثم يربطها تدريجيا بعلامات أخرى إلى أن تتسق شبكة العلامات وتنتظم تحت قيمة أو عنوان يجمع شتاتها.

وهكذا، عبر التناول التقابلي، وخلافا لتأويلية مفتاح، كما سنرى التي تتسلح في قراءة النصوص بعتاد نظري قوي من اللسانيات، والسيميائيات، والشعريات الحديثة، والتداولية، ونظريات البلاغة، والذكاء الاصطناعي، والتيارات التأويلية الحديثة... فإن تأويلية كِليطو تبتعد عن عتاد المفاهيم لتواجه النصوص بتأمل وتدبر، بحثا عن كنوزها وخفاياها، وبياضاتها، ومجالاتها الأكثر غرابة وإعتاما. فتتدخل الثقافة والمعرفة الخلفية للمؤَوِّل، والعودة المتكررة إلى المعاجم والنحو والبلاغة لتحكم مسار دلالة على حساب أخرى.

وهذا ما يفسر لنا غياب مقدمات منهجية في كتب هذا المؤول الذي يبحث في صمت راهب، عن الخفي والملغز والمحير والسري في عوالم النصوص، وهو لا يبحث عن تجريب منهج معين على النصوص، ولا ترسيخ تقليد نظري تُقرأ في ضوئه،وإنما يجرب القراءة والتأويل بكل معاناتهما ومكابداتهما، ودهشتهما وفرحتهما بالاكتشاف والانتصار على الخوف من الضياع والتيه عن طريق العودة. وبدلا من النظرية والمنهج الصارم يستعين بالثقافة والذخيرة والموسوعة، فيكون التأويل هو حصيلة مواجهة استكشافية بين الذات والنص والثقافة، إنه ثالوث المرايا المتقابلة.

"الحكاية والتأويل" هو الكتاب الذي يضم خطاب التأويل الذي نشتغل عليه، يحاول أن يعيد الاعتبار لنصوص من السرد العربي القديم، منتقاة وفق اختيارات ذاتية، لا يلتزم فيها المؤَوِّل -كما تصرح بذلك المقدمة- بأية قيود منهجية أو خطوات إجرائية عملية لحظة القراءة، لذلك سنحاول عبر الميتا-خطاب تمثل مستوياتها وتحديد

آليات عملها. قال: "كيف سأتناول كلام الجرجاني؟ هل سأفسره انطلاقا من افتراض أقوم بتركيبه؟"[31].

تبين مثل هذه التساؤلات التأويلية- وهي حاضرة بقوة في بعض أعماله- أن المؤَوِّل لا يتقيد بخطوات منهجية في القراءة، ولا يخضع لأدوات جاهزة.إن النصوص المختارة للتأويل هي مجال اهتزاز وانتظار مقلق على حد تعبيره في "الكتابة والتناسخ" وهي أرض غريبة تحار فيها الأقدام وتختلط الاتجاهات لغياب نقطة مرجعية مضمونة[32].

و في كل الأحوال فإن تأويلية كِليطو تضمر ترابطا منطقيا بين آليات عاملة في خطابه،كما سنرى، وهي الافتراض، والفهم،وبناء المعنى، والترجيح، والتحقق عبر الأشباه والنظائر، ومواد السياق، والمراجعة. إن الخطاب التأويلي يحتوي أدواته الإقناعية لأنه صادر عن عقل يتدبر المعنى في النص ويدقق في حدود انسجامه مع مرجعياته وموازياته. كما يتحصن الإجراء التأويلي في إقناعه بعدة إمكانيات، منها العودة المتكررة إلى المعجم؛ فالكلمة الغامضة عندما تعرض على مرجعها اللغوي تفتح للمؤَوِّل آفاقا رحبة للقراءة، وهو يعترف بهذا: "عندما تقرأ نصا على ضوء لسان العرب، فإنك تفاجأ بدلالات وعلاقات لم تكن في الحسبان، إنني مدين بالكثير لابن منظور"[33].

يحضر المعجم ومواده ليعزز دلالة، أو ليشبعها، أو ليغنيها، أو ينقضها، أو يوسعها ويفصلها. وكذلك عبر استحضار الأشباه والنظائر النصية التي لها بناء مماثل أو تعالج قضية مشابهة، وذلك في أفق تشييد معنى تستقيم فيه المقدمات مع النتائج.ويتم الاستنجاد بالكتاب التراثي، الذي يحضر بثقله في فضاء التأويل، لما يقدمه من عناصر استبدالية

---

(31) كِليطو، الحكاية والتأويل، م.م، ص.12.

(32) عبد الفتاح كِليطو، الكتابة والتناسخ، م.م، ص. 75.

(33) نفسه، ص. 78.

تسند المؤوِّل في إبحاره القرائي، ويظل السؤال مفتاحا سحريا لسبر أغوار النصوص، بل وفي أحيان كثيرة لإقحام القارئ في حلبة المواجهة مع النص.

هذه مجموعة مظاهر أو تقنيات تأويلية من بين أخرى، هدفنا من تقديمها إعطاء صورة مختصرة عن إشكاليات التأويل وأدواته التي يثيرها الكتاب، لنفهم على ضوئها - وعبر إستراتيجية التتبع التقابلي دائما - مستويات قراءة النص المنقبي.

3-2- مفتاح مؤوِّلا

تنطلق تأويلية مفتاح عموما من هاجس معرفي وقرائي يكاد يسري على جل أبحاثه، وهو يقوم على البحث عن طرائق جديدة وملائمة لتحليل النصوص والخطابات. وفي كتبه الصادرة: "تحليل الخطاب الشعري"[34]، "دينامية النص"[35]، "مجهول البيان"[36]، "التلقي والتأويل"[37]، "التشابه والاختلاف"[38]، "المفاهيم معالم"[39]، "وغيرها، تظهر جدية التساؤل المستمر والعميق عن تأويلية شمولية وعميقة، تستفيد من مرجعيات مختلفة وتؤسس أنساقها الخاصة بها.

إن الخيط الرابط والهم الرئيس الذي ينظم هذه الكتب هو تأويل ظواهر نصية مختلفة في أجناسها: شعر قديم، شعر حديث، قصة،

(34) تحليل الخطاب الشعري، مرجع مذكور.

(35) دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.2، 1990.

(36) مجهول البيان، مرجع مذكور.

(37) مرجع مذكور.

(38) التشابه والاختلاف، نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1996.

(39) المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1999.

منقبـة، نـص قرآني، كتـب بلاغية، كلامية...وذلك بهـدف الوقوف على خصوصياتهـا وتقديـم نماذج للقراءة، منطلقها الدراسـة والتعرف الدقيق على البناء التحتي القاعدي لكل نوع، تسنده في ذلك ثقافة عربية تراثية متينة، واطلاع واسـع على المنجزات والمقترحات النظرية الغربية ذات المنابع المختلفة.

يأتـي كتـاب: "مجهـول البيان" -والـذي يتضمن الخطاب التأويلي الذي يعنينا- لإعادة النظر في البيان العربي، ومحاولة تجاوز عجز البلاغة القديمـة عـن فهم أشـكال فنيـة جديدة مثل: اللوحة التشكيلية،والشـريط السـينمائي، والكرامة الصوفية.. وذلك في أفق الإسـهام في حل مسـألة الاستعارة السياقية، لأن ما تركه البلاغيون القدماء-كما يرى- لا يفيدنا في حل الاسـتعارات النصية، أي الاسـتعارة التي يمثلها النص كاملا [40] لا التراكيب الجزئية المرتبطة بالاستعارة داخل الجملة.

إن مسـوغ دراسـته لنـص منقبـي هـو تظهير المفاهيـم النظرية التي قدمها، ويبين أن اشتغاله التأويلي وراءه مفاهيم وفروض وقواعد، وليس ممارسـة معزولـة عن خلفياتهـا النظرية، بل هو تكميل وتوضيح وتظهير لمـا قدمـه في الفصول التي سـبقت من الكتاب والتـي تناولت:التعريف الأرسـطي، والشـجرة الفورفوريـة، والخلفيـة التـي تحكـم إجـراء الكتابة،والمجـاز المرسـل، وآليـات التقيـس في التشـريع والفقه، وكذا قضايا العلم المعرفي، والتيارت التأويلية العقلانية قديمة وحديثة.

إن تأويـل المنقبـة الصوفيـة جـزء مـن كتـاب نظري صـرف يعالج مسـألة الاسـتعارة النصية، والاسـتعارة السـياقية، ويقدم زادا ثمينا حول نظرية التأويل.

---

(40) ينظر مجلة آفاق الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب، في سبيل فهم جديد للنقد، حوار مع محمد مفتاح أجراه محمد الدغمومي وسعيد يقطين ع.7، 1980، ص. 16.

3-3- النص الكرامي موضوع القراءة

3-3-1- أبو سهل والجمل (كِليطو)

"ورد من بلاد المشرق فدخل المغرب ونزل برباط تاسماطت من عمل مراكش، فمات به، وقبره معروف يتبرك به إلى الآن. ونقل الخلَف عن السلف أنه جاء من المشرق على قدميه، وعلى عاتقه مخلاته التي جعل فيها كتبه، فمشى يوما إلى أن كلمه جمل بإزائه فقال له: يا أبا السهل اجعل مخلاتك عليَّ لتستريح من حملها".[41]

3-3-2-أبو زكريا يحيى بن لا الأذى الرجراجي (مفتاح)

"من أهلِ بلد ونكيلة بوادي شفشاون، قديم الوفاة، وكان قد رحل إلى المشرق رحلته التي حج فيها، وكان عبدا صالحا مجاب الدعوة،حدثوا عنه أنه أخذ ذات يوم منجله لقطع شجر السدر، فبينما هو يقطعه إذ صادف رِجل قنفذ فكسرها، فآلمه ذلك وقال:اسمي يحيى بن لا الأذى فإذا أنا يحيى بن الأذى، أوذي خلق الله.فأخذ القنفذ فربط رجله بحبائر وأدخله في خابية، فكان يسقيه الماء ويطعمه التين والزبيب إلى أن انجبر فذهب"[42].

نورد هنا المنقبتين- موضوع القراءة- عبر مقابلتهما وجها لوجه، ليستأنس القارئ بعوالمهما المتحركة، ويطرح على نفسه أسئلة مختلفة عن خطاب تأويلي مفترض.كيف يمكن تأويل هذين النصين؟وهل هما فعلا محتاجان إلى كل هذا الجهد التأويلي؟وإذا كانا كذلك فما هي الأدوات والقنوات القرائية التي تمكننا من قراءتهما؟ وماذا يمكن أن نستفيد من الخطاب التأويلي نفسه،ومن تحليل خطاب التأويل

(41) كِليطو، الحكاية والتأويل م.م، ص.59.

(42) مفتاح، مجهول البيان، م.م، ص. 116.

وفـق إسـتراتيجية تقابلية؟هـل يقـدم لنا جديـدا، أو يزودنا بنموذج قرائي موسع؟

نحـن بدورنـا نتسـاءل عـن عناصر مقاربة كل مـؤَوِّل، وعن حدود تفاعل المرايا المتقابلة أثناء الاشـتغال، وعن حدود إسـهام المسـتويات البنائيـة النصيةإلـى جانـب موازياتهـا ومقابلاتهـا السـياقية فـي عمليـة القراءة.

4 – خطاب الوصف والتأويل

4–1– تأويل الافتراض ومستوى بناء القصة

ينطلـق التأويـل عنـد كِليطـو من محاولـة إعادة بناء فضـاء القصة، فهـي كمـا لاحظنـا مختزلـة ومكثفة، وتحتاج إلى توسـيع وتمطيط لملء بياضاتها، إنها خالية من كل تعليل للأفعال والأحداث، وإضافة إلى ذلك فإنهـا علـى مـا يظهـر تفتقر إلى نهايـة، إلى تتمة أو تكملـة، فيتعين على المؤَوِّل إذاً بسـط النص واسـتحضار أقسـامه الغائبة: البداية، التفريعات المفترضة، النهاية، بناء على فهم النص أولا، وربطه بغيره من النصوص وسياقه الإنتاجي والثقافي العام ثانيا.

إن افتقار النص المنقبي إلى العناصر القصصية كاملة يدفع المؤَوِّل إلـى عـدم الالتـزام بفضائه الضيق الذي ترسـمه اللغة، والانفتاح على كل العناصر السـياقية التي تتقاطع معه أفقيا، ممثلة في نماذج سـردية مشـابهة سواء ما ورد في كتاب "التشوف" أو بما تزوده به الثقافة السردية عامة.

سـمينا هـذا الإجـراء بتأويـل الافتراضـات، لأن القصـة التـي أعاد المـؤَوِّل كتابتهـا مبنيـة علـى الافتـراض، افتراض ما يمكـن أن يكون قد وقـع، وافتـراض مبـررات لمـا وقـع. "لماذا قطع أبو سـهل الطريق على قدميه؟هل لفقره وإدقاعه؟هل تشـبها بالحُجاج؟ لماذا طلب الجمل من أبي سهل أن يجعل عليه مخلاته؟وبأي لهجة خاطبه؟توددا أم نصحا أم

سخرية؟"[43].

عبر الافتراض، يتسنى للمؤَوِّل توسيع نواة دلالية في النص، شديدة الافتقار إلى رسم أبعاد الحدث ودوافعه وكيفياته، والافتراضات المقدمة لا تحظى كلها بالمقبولية، وإنما يتم اختيار إحداها بناء على فعل ترجيحي: "ماذا حدث للجمل بعد أن كلمه؟ ماذا كان رد فعل هذا الأخير؟ هل استجاب للدعوة المقدمة إليه؟ هل وضع المخلاة على ظهر الجمل ليستريح من حملها؟"[44].

يرجح المؤَوِّل فعل القبول مبررا إياه: "لاشك أنه لبى الدعوة لأنها بصدورها عن حيوان غير ناطق أصلا، شيء خارق، شيء يدل على تدخل قوة تتعدى الفهم العادي...فليس بوسع أبي سهل إلا أن يمتثل للأمر ويستريح من حمل الكتب"[45].

وهكذا فإن تأويلية كِليطو في إعادة بناء القصة تقوم على مستويين مترابطين:مستوى الافتراض، وعبره يتم تفريغ القصة وتشعيب أحداثها، وفيه ضمان تطورها وتناميها، ومستوى الترجيح الذي يستند إلى ثقافة المؤَوِّل واجتهاده وقدرته على بناء صيغة من صيغ الملاءمة بين النص ومرجعياته التي صدر عنها، والتي يتقاطع معها في كثير من العناصر (البناء المختزل، اللغة الرمزية،الخرق والعجائبية، والوظائف، والمقاصد.

كما يتم اللجوء إلى المعجم لاستقصاء الدلالات الممكنة للكلمة في التواضع والعرف، والاستنارة بإضاءاتها في حالات الإعتام والغموض. وتحضر الأشباه والنظائر لتزكي تخريجا على حساب آخر، ويقدم الكتاب التراثي في هذا المستوى عناصر ومواد استبدالية، أو توسيعية هامة تغني القراءة وتسندها.

---

(43) كِليطو، الحكاية والتأويل، م.م، ص. 59.

(44) نفسه، ص. 66.

(45) نفسه، ص. 66.

4-2- النص المنقبي في مرآة سياقه

إن الاشتغال التأويلي عند كِليطو، في قراءته للنص المنقبي، كما في النماذج الأخرى التي تضمنها كتاب "الحكاية والتأويل"، يستند إلى عناصر نصية وأخرى سياقية خارجية، فالمؤشرات اللغوية، والبلاغية، والرمزية، وعلاقاتها بمساقها الداخلي يتم تفعيلها وإعادة بهجة الدلالة إليها، عبر مؤشرات استبدالية تقدمها الذاكرة الجمعية، والموسوعة، والثقافة، والتاريخ. ومن هذه المؤشرات البنائية النصية نجد مثلا:القرشي من قريش، القبر والقدمين،اسم أبي سهل، المخلاة، المشرق والمغرب...

ومن المؤشرات الاستبدالية السياقية،كذلك، التي لا يستوعبها فضاء النص ولكنه يستدعيها نجد مثلا:قصة النبي سليمان، قصص أولياء آخرين من كتاب "التشوف" والإحالة المتكررة على ابن الزيات، إلى درجة نحس فيها أن تأويل هذا الكتاب ككل مختزل في تأويل نص واحد منه. إنه تأويل خطي متداخل العناصر والمستويات، لا يتبع إجراءات تجزيئية معينة، وإنما يؤمن بحريته، دون أن ينبهر بنتائجها، يسجل قراءته ضمن فضاءات القراءات الممكنة ولا يفرضها. كما أن لا أحد يملك معايير دقيقة للحكم عليها بالصحة أو الصلاحية، وهو نفسه لا يتساءل ما إذا كان الجمل قد كلم فعلا أبا سهل، وإنما يسلم بذلك.

إن الذي يهمنا هو إبراز التداخل والتقاطع والتساند بين آليات الدلالة في النص، مع مجموعة أشكال معرفية خارجية لحظة القراءة، وتلميع هذا النمط القرائي القديم[46]، بإزالة التراب والغبار عنه، وإجلاء

(46) اعتبرناه شكلا قرائيا قديما لتحققه بأعلى درجات التماسك والشمولية في الخطاب التفسيري، وخطاب الشروح الشعرية، وغيرها. وقد وقفنا على تجلياته بدقة في تفسير جار الله الزمخشري وعماد الدين بن كثير، وفي شرح المرزوقي، والعكبري وغيرهم. انظر الخلاصات المتعلقة بذلك في "التأويلية العربية" م.م، ص.185 وص.218.

حدوده التأويلية، ثم اقتراح نماذج قرائية بديلة من خلاله.

4-3- التأويل وإجراء الاستعارة السياقية

تقوم تأويلية مفتاح، كما أشرنا،على ترابط وثيق بين التنظير والتطبيق، وهو يحاول في كتاب "مجهول البيان" تطبيق مفاهيم الاستعارة السياقية على أشكال سردية. فيشتغل على النص باعتباره مجموعة استعارات جملية، تؤوب إلى استعارة نصية ثم استعارة سياقية.ويهدف الباحث المؤَوِّل إلى اختبار النظرية المقترحة[47]ليرى مدى ملاءمتها لتحليل المناقب والكرامات، كما لاءمت الأقاصيص والحكايات.ولأجل ذلك وظف في خطابه مفاهيم متعددة مثل:الواقع،والعالم الممكن،ودينامية عالمَي النص، وتشعب النص، والتلاصق، والتماثل،وبناء عالم الإمكان، واستعارة الجمل، واستعارة النص،واستعارة السياق، وغيرها.

يستند التأويل عند مفتاح على جهاز نظري،وفروض وقواعد ومفاهيم، وهو ما ساعده على اكتشاف الثنائيات التي تقوم عليها حياة النص:الوجه الظاهري/ الوجه الباطني،المعنى الحرفي/ المعنى المجازي،عالم الواقع / عالم الإمكان، الموضوع الأول/ الموضوع الثاني، المشبه / المشبه به.

وبما أن النص المنقبي ليس بريئا في قصديته، فإن المؤَوِّل يجتهد في الوقوف على موازيات باطنية للظاهر،فالمضمون الحرفي مؤشر على مضمون أعمق. والنص المنقبي الذي اتخذه موضوعا للتظهير يمثل حالة وسطى بين مناقب واضحة الدلالة وأخرى غامضة وشديدة الانزياح عن الواقع.

ويتضح من هذا أن تأويلية مفتاح تخضع لمنهجية دقيقة في العمل، تنطلق من هَمٍّ معرفي صرف وهو توسيع إجراء الاستعارة السياقية على

---

(47) مفتاح، مجهول البيان، م.م، ص. 16.

أنـواع نصيـة كثيـرة، ويعتمـد مفاهيـم وإطـارا نظريـا منظمـا، قائما على التسلسل والتدرج والالتزام بالحدود التي ترسمها المقدمات النظرية.

4-4- النص في مرآة السياق مرة أخرى

إن الظاهـرة النصيـة، كما يرى المؤوِّل، ترتبط بضرورات إنسـانية، ومن ثمة تشملها قواعد عامة، فكونها أدبا يفترض أن يوجد فيها ما هو ضـروري للحيـاة. وما يدل على الجنـس وعلى التدين. وقواعد خاصة؛ فكـون النـص منقبـة فإنـه يفترض فيـه أن يتحدث عن بطـل وعن أفعال خارقة، ويثير المفاهيم التي سـيوظفها وهي التفاعل النصي،و الاسـتعارة التفاعلية.

إن كـون النـص منقبـة دفـع مفتـاح- شـأن كِليطـو- إلـى وضـع افتراضـات عديـدة للمناحـي الدلالية في النـص والمرتبطة خاصة بعالم الإمكان.وهكـذا يتبـدى أن أول خطـوة قرائيـة كيفمـا كانت إسـتراتيجية المـؤوِّل هـي الافتراض المرتبط بالمعانـي الممكنة أو الوقائع المحتملة أو غيرها، سواء تم التصريح بتلك الفرضيات ودونت أم لـم يصرح بها، لأنهـا إجـراء طبيعـي تلقائي يعمـل لوحده عند اسـتقبالنا لظواهر جديدة علينا، توجهنا في ذلك مؤشرات نصية ظاهرية ومعارفنا الخلفيـة، فيتشـكل المعنى وتتقدم القراءة إلى الأمام أكثر فأكثر.

ثم إن النص المنقبي -سواء كان حرفيا أو رمزيا-قابل للبحث فيه عـن دلالات باطنيـة، ومـع ذلك فالقراءة التأويلية لابد وأن تخضع لقيود محددة تعصم من الهذيان، وتحد من إمكانية التزيد على النص[48].

يلعب مفهوم التفاعل النصي دورا مركزيا في إبراز الحركية القائمة بين عالمي الواقع والإمكان في النص، وبوساطته يمكننا أن نجرب "أ" كـ "ب" ولكنه ليس "ب"، فالسـفينة (لعبة الأطفال) لها خصائص السـفينة،

(48) مفتاح، مجهول البيان، م.م، ص. 120.

ولكنها لا تقوم بالوظائف الحقيقية للسفينة. ومثل ذلك الصوفي فهو إنسان ونبي أو نصف إله، فهو إنسان عادي وليس إنسانا عاديا، وأدب المناقب يقوم على خاصية التماثل والتفارق وهي مصدر توتر الدلالة فيها؛ فالبطل يخرق سنن الطبيعة، وتتسم أفعاله بكل ما هو عجيب. عبر هذه الخصائص العامة يتقدم التأويل في الأراضي الرخوة للحكاية، وهي فضاءات للرموز والمعاني قلما تصمد فيها الأقدام.

اسم الصوفي من المؤشرات النصية التي يمكن اتخاذها مدخلا للقراءة، كما حصل مع كِليطو، ولذلك يستعين مفتاح برمزية أسماء الأعلام، فاسم أبي زكريا يحيى بن لا الأذى من صفاته أنه محيي وغير مؤذ، لكن عمله هو الإيذاء والإحياء حسب النص، فالنص إذًا تمطيط للاسم. وبعد ذلك يتقدم التأويل خطوة أخرى للبحث عن إواليات نمو النص، وخاصة إوالية التلاصق، أي ترابط الكلمات والجمل فيما بينها، وكذا تشارك الجمل والفقرات مع سابقتها في المعنى لبناء عالم الإمكان الذي هو هدف التأويل، الأمر الذي ظل هاجس كِليطو كذلك.

اعتبر المؤوِّل العالم المتحقق في النص مشبها به،وعالم الإمكان مشبها، فجعل الإله هو الصوفي والإنسان قنفذا والمعصية منجلا، وفي مقام ثان جعل النص مشبَّها وعالم الإمكان مشبها به، الصوفي إله، والقنفذ إنسان والمنجل معصية ليؤكد التماثل بين عالم الواقع وعالم الإمكان في النص. ثم يستعين بالفصول النظرية من الكتاب، متدرجا من استعارة الجمل إلى استعارة النص ثم استعارة السياق.

ففي استعارة الجُمل يلجأ المؤوِّل إلى التحليل بالمقومات، ليبين حدود التشابه والتماثل بين كل عنصر من عناصر الواقع ونظيره من عالم الإمكان، وهو في هذا المستوى، يلتقي مع كِليطو في بناء قراءته على المقومات الدلالية للكلمات واستخدام المعاجم اللغوية. ومن استعارة الجملة ينتقل إلى استعارة النص، إذ هو سلسلة من الاستعارات متفرعة

عن استعارة نواة، ثم تسلمه استعارة النص إلى استعارة السياق، وهي مجموع الاستعارات المتضام بعضها إلى البعض، وتوازي الخلفية الثقافية والاجتماعية. وقد ركز فيها مفتاح على التدين الشعبي وعلى غريزة المحافظة على الحياة والجنس.

5 - تأويل التأويل

استطاع المؤوِّل عبر مفهوم الاستعارة النصية والسياقية استقصاء مناحي الدلالة الظاهرة والباطنة في موضوعه التأويلي، وفي هذا تأكيد لما انطلقنا منه، وهو أن اشتغال أفعال التأويل يتساند فيها، في كل الأحوال ما هو نصي وما هو سياقي، ويظل الاختلاف في المفاهيم والأدوات والإستراتيجيات التأويلية حاضرا وفارضا نفسه باستمرار، أما الثوابت فتظل هي نفسها.

اعتمدت تأويلية مفتاح على عالم الإمكان في عملها،وعلى مقومات بنائية نصية:استعارة النص،المعجم، التحليل بالسمات،استعارة النص، التماثل، التلاصق، وعناصر خارجية سياقية:استعارة السياق، التدين الشعبي، هيبة السلطة السياسية، المحافظة على الحياة....وقد تبين لنا كذلك في خطاب التأويل عند كِليطو أنه يعتمد قواعد مضمرة، وآليات عمل تؤمن بتساند قنوات الدلالة في النص مع قنوات يمد بها الفضاء التناصي الواسع وذخيرة المؤوِّل والعلوم المرجعية.

خلاصة:

يمكن التمييز داخل الخطابات التأويلية المرتبطة بالأدب بين نمطين من التأويل، نمط أول يستعين بإجراءات تحليلية وتأويلية أصلها منهج نقدي، حيث يصبح التأويل تجليا لبنية مجردة قوامها تصور معين لأدب:الأدب موضوع للدراسة النفسية، الأدب موضوع للدراسة السوسيولوجية...الخ.ونمط ثان يصبح بموجبه النص موضوعا للمعرفة،

وداخـل هـذا النمـط المتحلـل مـن أية التزامـات منهجيـة، صغنا فرضية مفادها تسـاند المسـتويات البنائية النصية فيما بينها لحظة القراءة لتشـيد المعنـى، وانفتاحهـا علـى كـم غزير مـن النصوص المشـابهة والمعارف القبلية والمواد المعجمية والأطر المعرفية والثقافية.

ومهمـا كان التنويـع واضحـا فـي الإجـراءات التأويليـة وأدوات الاشـتغال، وكانت المنطلقات والدوافع والمشاريع القرائية متقاصية،فإن التأويل يتخذ مسـارا دائريا، يبتدئ من النص وينفتح على السـياق ليعود إلـى منطلقـه. وقـد تبين لنا من النموذجيـن المختارين لمؤولين مغربيين معاصرين-عبـر المقاربـة التقابليـة التـي تشـمل النصـوص كمـا تشـمل خطابـات التأويـل-أن الإسـتراتيجيات التأويليـة وإن تباينـت فإنها تلتقي في الاشـتغال على دوائر النص الصغرى: المعجم، والتراكيب النحوية، والتراكيـب البلاغية،والرمزية،والعلاقـات بيـن البنيـات النصيـة، والجزء والـكل، والتفاعـل، والتماثـل، والتلاصـق... وعلـى دوائـر كبرى تلعب دور التوسيع ممثلة في عناصر السياق الخارجي:ملابسات إنتاج النص، وصاحبه،وموازيـات نصيـة، والأشـباه والنظائـر، والظـرف الاجتماعـي والسياسـي، والعلـوم المرجعية...ومـن كل ذلـك فإنه لا وجه للنص إلا فـي مرايـا سـياقه، وبالأخص مـرآة انفتاح القنوات وتسـاند الآليات التي يسـهر على إضاءتها المؤوِّل، إذ لا تأويل ولا صورة في العتمة.

الفصل السادس

البناء التقابلي في خطاب الحكمة

نموذج من "المحاضرات" للحسن اليوسي[1]

"إذا كان القَـدَر حقًّـا فالحِرص باطل، وإذا كان الغَدْر في الناس طبـعة فالثّقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت نازلا بكل الناس فالطمأنينة إلى الدنيا حمق" بزر جمهر الفارسي

تقديم

نقترح في هذا الفصل، دعما لما وقفنا عليه في الفصول السـابقة، نصين من كلام الحكماء، لنبرز مرة أخرى تحكم البناء الذهني التقابلي فـي إنتـاج الخطـاب، محاوليـن التدليل على أن التقابل يسـكن الوجود، بل يؤسسـه؛ كما أنه يشـكل العمود الفكري لأنسـاق التواصل. والتقابل - كمـا بيَّنـا- هـو مجاورة المعاني بعضهـا البعض، والتقريب بينها على مسـتوى التصور والتعرف والإدراك، إذ إن خير وسـيلة لإفهام الآخرين هي عرض الحقائق والأفكار عن طريق مقابلتها ببعضها، بأي منحى أو

(1) الحســن بن مسـعود بن محمد اليوسـي، الملقب بصاعقة العلوم، من أكابر علماء المغـرب فـي عصـره، فقيه، محدث، لغوي، أديب، مـؤرخ، صوفي فاضل، قال في حقه صاحب الرحلة العياشية:

مـن فـاتـه الحسـن البصري يدركـه   فليـصحـب الحسن اليـوسي يـكـفـيـه

له مؤلفات نفيسة منها: المحاضرات، وقانون أحكام العلم، وزهرةُ الأكم في الأمثال والحكم، ومنح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب، والكوكب الساطع في شرح جمع الجوامع، والقصيدة الدالية وشرحها وقد سماه: نيل الأماني من شرح التهاني، وغيرها. توفي رحمه الله عام 1102هـ.

شكل يتخذه التقابل: الترادف، أو التضاد، أو التماثل أو غيرها. قال ابن رشيق القيرواني: "والناس متفقون على أن جميع المخلوقات مخالف أو موافق أو مضاد"[2]. وقال الغزالي: "الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها"[3].

وبما أن التقابل أساس الحياة وعصبها فقد بنوا عليه القول، وتوسلوا به في الإنتاج وصناعة المعنى.قال ابن سيده" ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب في الصناعة"[4]، غير أن التقابل كما ذكرنا يتجاوز النقيض وحده، ليسع أنماطا أخرى مثل التراتب، أو التحاذي، أو التوازي، أو الترادف، أو التخالف، وغير ذلك من الإمكانيات التي يبنى عليها الخطاب. وننبه هنا أن آلية التقابل التي نتكلم عنها غير مفهوم المقابلة الذي تناولته البلاغة العربية، مع أنه يحتويها،بل هي تجل من تجليات التقابل. إن التقابل المقصود هنا مفهوم موسع، ذلك أن البلاغيين القدامى نظروا إلى المقابلة نظرة أفقية ترتكز على معاني الألفاظ، حيث إن المعاني المتوافقة يجب أن يقابلها على الترتيب ما يقابلها.

إن خاصية التقابل لها بعد كوني وإنساني وإنتاجي وبلاغي وتأويلي؛ وكما توقفنا عند تحققه وتجلياته في نص "الفاتحة" الكريمة، وفي نص مالك بن الريب، ونص "نمر" لعمر أبو ريشة، فإننا سنقدم نموذجين آخرين يسندان تصورنا النظري والتأويلي، فهو آلية فعالة في صناعة النصوص، وآلية قرائية وتأويلية لها أهمية قصوى في التحليل.

(2) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 1997، ج.1، ص583.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.3، ص.27.

(4) ابن سيده، شرح المشكل من شعر المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 1976، ص. 217.

وسواء كنا واعين أو غير واعين بها فإنها حاضرة ضمنيا، ويكفي التنبه القليل للوقوف عليها وإدراك أسرارها.

أورد اليوسي في كتابه **المحاضرات**، وتحديدا ضمن الباب المتعلق بكلام الأذكياء، نصا في الحكمة ارتأينا أن نجعله موضوعا لقراءة تقابلية تدعم بعض الجوانب التصورية والمنهجية التي أشرنا إليها: قال بزرجمهر الفارسي: "نصحني النصحاء، ووعظني الوعاظ، فلم يعظني أحد مثل شيمي، ولا نصحني مثل فكري، واستضأت بنور الشمس وضوء النهار، فلم أستضئ بشيء أضوأ من نور قلبي. وكنت عبد الأحرار والعبيد، فلم يملكني أحد ولا قهرني مثل هواي. وعاداني الأعداء، فلم أر أعدى إلي من نفسي. وزاحمتني المضايق فلم يزاحمني مثل الخلق السوء. ووقعت في المضار العظيمة، فلم أقع على أضر من لساني. ومشيت على الجمر، ووطئت على الرمضاء، فلم أر نارا أحر من غضبي إذا تمكن مني. وطلبني الطلاب فلم يدركني مثل إساءتي. وفكرت في الداء القاتل ومن أين يأتيني، فوجدته في معصية ربي. والتمست الراحة لنفسي، فلم أجد شيئا أروح لها من ترك ما لا يعنيها. وركبت البحر وعاينت الأهوال، فلم أر هوْلا أعظم من الوقوف بين يدي سلطان جائر. وتوحشت في البراري والجبال، فلم أر أوحش من قرين السوء. وأَكلت الطَّيِّبَ وشربت المسكر وعانقت الحسان وركبت الجياد، فلم أجد ألذ من العافية والأمن.وأكلت الصَّبْر وشربت المر، فلن أر شيئا أَمَرَّ من الفقر. وشاهدت الزُّحوف وعاينت الحتوف، فلم أر مثل المرأة السوء. وعالجت الأثقال ونقلت الصخر، فلم أر حملا أثقل من الدين. ونظرت فيما يُذِل العزيز ويكسر القوي ويضع الشريف، فلم أر أذل من فاقة وذي حاجة. ورُشِقت بالنّشَّاب وشُددت في الوثاق وضربت بعمد الحديد، فلم يهدمني شيء مثل ما هدمني الهم والحزن. واصطنعت الأخدان وانتخبت الأقوام للعُدَّة والشدة النائبة، فلم أر شيئا

خيرا من التكرم عندهم، وطلبت الغنى من وجوهه، فلم أر غنى أغنى من القناعة، وتصدقت بالذخائر، فلم أر صدقة أنفع من رد ضالة إلى الهدى. ورأيت الذل في الغربة والوحدة، فلم أر أذل من مقاساة جار السوء، وشيدت البنيان لأعتز به وأُذكر، فلم أر شرفا أرفع من اصطناع المعروف. ولبست الملابس الفاخرة، فلم ألبس مثل الصلاح. وطلبت أحسن الأشياء عند الناس، فلم أجد شيئا أحسن من حسن الخلق، وسُرِرت بعطايا الملوك وجوائزهم، فلم أُسَرَّ بشيء أعظم من الخلاص منهم"[5].

الحكمة خطاب تتفاعل في صناعته عناصر المعنى واللفظ، والتركيب، والتوزيع، والإيجاز، والوضوح، والقصد إلى التوجيه؛ ولذلك فالقائل يجد نفسه موجها بأدوات بلاغية ترفع خطابه إلى درجة التماسك والانسجام المؤدي لتفاعل إيجابي معه،يتجاور حدود التلقي إلى مستوى التداول والانتقال من جيل إلى آخر، ومن أمة لأخرى.

تتداخل في خطاب الحكمة المعرفة بالحياة والكون والناس والوجود والحال والمآل، ثم الإبداع والقدرة على إحكام الصناعة. ومن أهم سمات خطاب الحكمة التقابلات البنائية اللفظية والمعنوية والتركيبية والأسلوبية والبلاغية. وهي سمة لا تقتصر على النص موضوع المقاربة هنا، وإنما تطول الأمثال العربية والحِكم والحكايات، وأبيات الشعر الحكمي التي يزخر بها التراث الإنساني.وسنحاول في هذا المقام، تأكيدا لما نقترحه حول جماليات التقابل في صناعة الخطابات وتأويلها، محاورة هذا النص كما حاورنا غيره، استمتاعا بجماليات التقابل وبلاغته، وتوجيها للقارئ للوقوف بنفسه على مداخلها وأسرارها في نصوص وخطابات أخرى.

(5) الحسن اليوسي، المحاضرات، أعدها للطبع: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص.ص. 224-225.

من معاني الحكمة: الفهم، والورع، وكذا العمل المتصف بالإحكام.قال اليوسي: "وقد صفا لنا أنها عبارة عن العمل المتصف بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله تعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به، والصد عن اتباع الباطل"[6]. والحكمة عند الغزالي "حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية"[7].

إن الحكمة إصابة للحق من غير نُبوة، إصابة على مستوى القول والفعل والفهوم. ويشير اليوسي [8]إلى أن الحكمة تتعلق بالقلوب والجوارح والألسنة؛ فأما ما يتعلق بالقلوب فهو الإصابة في المعتقد وتصور الحقائق، واتباع فضائل الأخلاق من حِلم وعفو وعفة وعدل. أما الأيدي فما تعلق بالصنائع وإتقانها. وأما على مستوى الألسنة فالقصد إصابة المعاني في قالب تعبيري بليغ. وقد اشتهر العرب بحكمتهم القولية، واشتهر اليونان بحكمتهم القلبية، والصينيون بحكمتهم اليدوية. ولذلك قيل: أُنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد: قلوب اليونان، وألسنة العرب، وأيدي أهل الصين[9].

نقترب من الحكمة الفارسية لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن". أما هدفنا التحليلي فهو تتبع مستويات بناء المعاني، والإفادة من المضامين، لمتابعة تجليات التشكلات التقابلية في الخطاب، وما تنبني عليه من مقدمات وتوابع. وسنجد أن بنية الخطاب الحكمي تقوم على التقابل بجميع ألوانه من المفارقة،

---

(6) الحسن اليوسي، زهرة الأكَم في الأمثال والحِكم، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب،دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.1، 1981، ج.1، ص.26.

(7) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.1، ص. 54.

(8) اليوسي، زهرة الأكم، مذكور، ص. 28.

(9) نفسه، ص. 28.

والتماثل، والتضاد، والسببية وغيرها. وكما يقال: بأمثالها تتبين الأشياء. وقيل: بضدها تُتبين الأشياء، كما تتبين عبر المقابلة بأنواع أخرى من العلاقات: بمرادفها وتوابعها وأسبابها ونتائجها. ونحن ساعون- عبر نماذج نصية مختلفة - لمتابعة جماليات التقابل والأنس بها، وكذا إيناس الآخرين وإفادتهم، ومن قرع الباب ولجَّ وَلج.

يتأسس خطاب الحكمة في هذا النص على تقابل مركزي أو نووي تتفرع عنه بقية التقابلات وهو: الذي حصل واقعيا وظهر أنه لا يجدي، والذي ثبت وصح وتبين للحكيم أنه أجدى وأنفع.غير أن لهذا التقابل -كما سنرى فيما بعد- وجها آخر وهو العالم الخارجي والذات، أو أثر الواقع مقابل أثر حركة النفس؛ فكل ما هو خارجي تبين أنه ناقص أو مزيف، وكل ما استخلصته النفس والوجدان والعقل والقلب تبين أنه حقيقي، إنه تقابل الحقائق والأوهام كما رأينا مع الغزالي. إنها العودة إلى الفطرة بعد التجريب،والدواء بعد رحلة الألم.

لا بد أن نُذَكِّر هنا، بأن **بزرجمهر** كان وزيرا لكسرى أنو شروان الذي كان له ولع بالعلم والأدب، وحين سمع بكتاب كليلة ودمنة وما فيه من الحكمة سعى في طلبه، فكلف بزرجمهر وزيره أن يبحث له عن رجل أديب عاقل يعرف لغة أهل الهند،ويكون حريصا على طلب العلم والأدب. الرجل الذي توافرت فيه هذه الشروط هو **بَرْزويه**، الذي يحظى بدعم أنو شروان الكامل للبحث عن كتاب كليلة ودمنة وغيره مما يفيد الناس، والإتيان به. ثم يهيئ له كل ما يحتاج في سفره وإقامته هناك.

لما وصل برزويه إلى إلهند اتخذ له أصدقاء منهم خازن الملك للوصول إلى الكتاب. وبالفعل يصل إلى بغيته، فينسخ الكتاب وغيره مما تأتى له من الكتب القيِّمة ثم يعود إلى بلاده، فيثني عليه أنو شروان ويكرمه، لكن برزويه كان له طلب آخر غير المال والجاه، فيطلب أن يُذْكَر اسمه وقصة رحلته إلى بلاد الهند، وما عاناه من أجل نقل

الكتاب إلى بلاده، هذا الباب الذي كتبه بزرجمهر يتضمن متاعب الرحلة ومشاقها وجعله أول أبواب الكتاب. وتم لبرزويه ما أراد، وأبقى ذكره كما رغب في ذلك[10].

إن الحكمة عند بزرجمهر متولدة عن المعرفة والتجربة والرحلة والاطلاع على الحكمة الهندية، فهو الحكيم المتروي، والأديب البارع الذي كتب عن رحلة برزويه إلى الهند بحثا عن كتاب الحكمة الهندية والذي تُرجِم فيما بعد إلى العربية بعنوان: "كليلة ودمنة". شخص في قيمة بزرجمهر، ليس غريبا أن تتأسس خطاباته الحكمية على مستويات دقيقة في القول والحكمة، وهو- هنا- يقدم الخلاصات: خلاصات التجربة الحياتية والمعرفية، دون أن يحكي أو يسرد، وإنما يقدم تجربته الشخصية، وخلاصات علاقاته بالقيم والحياة والناس في قول موجز وبليغ.

إذا عدنا إلى النص فإنا نكتشف هذه الثنائية البدئية: من ينصح حقا مقابل من لا ينصح؛ النصيحة الحقيقية مقابل النصيحة الناقصة أو المزيفة.تقابل نووي أساس يعتبر قاعدة لباقي التقابلات الأخرى: "نصحني النصحاء، ووعظني الوعاظ، فلم يعظني أحد مثل شيبي، ولا نصحني مثل فكري، واستضأت بنور الشمس وضوء النهار، فلم أستضئ بشيء أضوأ من نور قلبي". يحمل هذا المقطع بعدا عميقا وكأنه استخلاص لما عرفته حياته من تقلبات في المعرفة والفكر والتجربة والسياسة، وهو كذلك تأسيس لمبدأ العودة إلى الفطرة وإلى الذات، وهكذا تقوم هذه الخلاصات الحِكمية على:نُصح النصحاء ووعظ الواعظين مقابل وعظ الشيم الشخصية والعقل. وهو تقابل تثميني يضع في الميزان طرفي التقابل ليعلي من شأن الفطرة، ويؤكد أهمية علاج

(10) انظر بيدبا الفيلسوف الهندي، كليلة ودمنة، تر: عبد الله بن المقفع، دار الكتب العلمية، بيروت. المقدمة.

النفس وتربيتها كما في الأثر: "من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر لم تنفعه الزواجر ".وهو تقابل يُظهر أهمية البصيرة الداخلية، وأن الحقيقة كامنة في القلب الذي يفوق نوره، هنا، نور الشمس؛ إن العمى لا يزيله النور الخارجي مهما كان قويا، وإنما النور الداخلي الذي يملأ القلب فيستضيء به صاحبه.لا يصل العقل إلى هذه الحقيقة إلا مع طول التجربة وعمق الممارسة الفكرية والتأمل الباطني، الذي يوصل إلى أن الحقائق كامنة فينا، وأن الاهتداء إلى طرق الخلاص قائم على العودة إلى الذات في صفائها ونقائها الأولي، فالنصح والنور أمران داخليان باطنيان. وفي الحديث الشريف: "استفْتِ قلبك ".القلب منبع الفتوى وهو الموجه إلى جادة الحق. تستدعي الدعوة إلى الأمور الباطنية جهدا ذاتيا، تعبا ما، فالحقائق التي تبنى داخليا بعد البحث والاستقصاء أفضل مما يمليه الناصحون. أما العبودية والعداوة ففيهما وجهان.قال: "وكنت عبد الأحرار والعبيد، فلم يملكني أحد ولا قهرني مثل هواي. وعاداني الأعداء، فلم أر أعدى إلي من نفسي".

يتأسس التقابل التفاضلي في مسألة العبودية على أن يكون الشخص عبدا للآخرين أو عبدا لنفسه، فأولاهما أهون عليه من الثانية، لأن عبودية الهوى أشد قهرا لصاحبها. إنها عبودية ناتجة عن استيلاء الشهوات والانقياد لها انقيادا مطلقا، فتكبر في النفس قيم البذل والبذخ والصلف والتكبر والعُجب وتحقير الخلق وإرادة الشر. أما الإدراك الذاتي للحقائق فيُوَلِّد العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء. ثم تأتي التقابلات الأخرى تباعا، وهي تعرض خلاصات التجربة الحياتية:عداء الآخرين أهون لأنه يحتاط منه ويقاوم، مقابل عداء النفس لا احتياط فيه ولا مقاومة. ونوضح ذلك كما يلي:

المزاحمة	مزاحمة الشدائد أسهل	مقابل	مزاحمة الخلق السيء أصعب
الإضرار	المضار العظيمة أقل ضررا	مقابل	اللسان ذو ضرر عظيم
الإحراق	النار أبرد	مقابل	الغضب حارق
الإدراك والنيل	الإساءة مُدرِكة	مقابل	الطلاب الجادون في طلبي لا يدركونني
الإيمان	معصية الله داء قاتل	مقابل	الطاعة صحة وحياة
مراقبة الآخرين	ترك ما لا يعنيني راحة	مقابل	إتباع مالا يعنيني تعب
السلطان	السلطان الجائر أشد خطرا	مقابل	البحر والأهوال أقل خطرا
المرافقة	وحشة البراري والجبال	مقابل	وحشة قرناء السوء
المغالبة	السباع تُغالَب	مقابل	قرين السوء لا يُغالب
اللذة	لذة الأطايب والمشروبات تافهة	مقابل	لذة العافية والأمن أعظم
المرارة	الفقر أمَرُّ	مقابل	الصِّبر (نبات مر) أقل مرارة
المعاشرة	المرأة السيئة	مقابل	الزحوف والحتوف
الثقل	الصخر والجبال	مقابل	الدَّين
الذل	أسباب الإذلال	مقابل	ذل الفقر والاحتياج
الإيلام	التوثيق والضرب	مقابل	الجرح والهم والحزن
الصحبة	اصطناع الصحاب	مقابل	التكرم

الامتلاك	الغنى المادي	مقابل	القناعة
هداية الناس	التصدق بالذخائر	مقابل	رد الناس إلى الهدى
الجوار	ذل الغربة	مقابل	ذل الجار السيء
المجد	البنيان والأمجاد المبقية للذكر	مقابل	مجد صنع المعروف
الجواهر والأعراض	لبس الملابس الفاخرة	مقابل	لباس الصلاح
محاسن الأخلاق	أحسن الأشياء عند الناس	مقابل	حسن الخلق
مجاورة ذوي السلطان	السرور بعطايا الملوك	مقابل	السرور بالخلاص منهم

ولو أردنا تجميع هذه التقابلات والبحث عن الروابط التي تلمها، لوجدنـا هـذا النـزوع إلى قيـم الخير والتحلي بفضائـل الأخلاق، مقابل الدنيـا ومتاعهـا. وهـذه النظـرة لا تصـدر إلا عن إيمان حقيقـي واعتقاد متيـن بنبـل الأخـلاق والقناعة، وعن محك تجربة حياتية واسـعة انتهت بصاحبهـا إلـى اختيـار طريق الخلاص والعافية والأمن، خاصة إذا علمنا أن بزرجمهر تحول في آخر أيامه إلى دين المـسـيحية تاركا المجوسـية، وهـو مـا دفع بكسـرى أنو شـروان إلى قتله.وقد كتـب في رقعة وضعها فـي منطقتـه: "إذا كان القَـدَر حقـا فالحـرص باطـل، وإذا كان الغدر في النـاس طبيعـة فالثقـة بكل أحد عجـز،وإذا كان الموت نازلا بكل الناس فالطمأنينة إلى الدنيا حمق"[11].

كان بزرجمهـر يعـرف نهايتـه حق المعرفة، وقد اسـتطاع أن يصوغ إحساسـه بذلـك صياغـة تبيـن إدراكه لحقائـق الوجـود إدراكا تقابليا،ثم تحويلها إلى الآخرين بطريقة بليغة شفافة وواضحة وموجزة. وتلك هي بلاغـة التقابـل على مسـتوى صناعـة القول التي أشـرنا إليها، وتلخصها

(11) اليوسي، المحاضرات، م.م، ص. 225.

التقابلات الســببية التالية: القدر حق مقابل الحرص باطل. الغدر طبيعة مقابل الثقة عجز. الموت نازل حتما مقابل الاطمئنان إلى الدنيا حمق.

قمنـا بهـذه الوقفـات القصيرة عند هذا النـص، لمضامينه الحكمية القيمـة مـن جهة، وللاستشـهاد به مـن جهة ثانية على بلاغة التقابل التي لا تقـف عنـد الحـدود الضيقة التي رسـمتها البلاغـة العربية القديمة في هـذا البـاب، وذلك بهدف التأسـيس لتصور جديد على مسـتوى صناعة الخطاب، يهدف إلى استثمار هذه المعطيات في الكتابة الشعرية والنثرية والوعي بها من هذا المنظور، وكذا إدراك مناحيها وعلاقاتها، وانفتاحها على مستوى قراءة النصوص والخطابات وتحليلها.

ونفسح المجال لك - أيها القارئ - مع هذا النص القصير لحكيم العرب **أكثم بن صيفي**، لتتفاعل معه بأي شكل من أشكال التقابل التي تراها مناسبة لقراءته، عسى أن يفتح لك بابا على الحكمة العربية الواسعة في النثر والشعر، وتشرب من معينها وتـستمتع في رحلتك التأويلية بألوان البلاغة التعبيرية:

"من وفـى بالعهد فاز بالحمـد، ومن اصطنع قوما انتفـع بهم يوما. ومن فسـدت بطانته كان كمن غص بالماء، ومن أكثر من شيء عُرف به. ومن حـدَّث من لا يفقه، كان كمن قدم مائدة لأهـل القبور، ومن قطع عليك الحديـث فلا تحدِّثه، إذ ليس بصـاحب أدب. ومن عُرف بالصـدق قُبِل كذبه. ومن عُرف بالكذب لـم يُقبل صِدقه. ومن غضب بلا شيء رضي بـلا شيء. ومن أظهر محاسنه ودفن مَساويه كمل عقله. ومن غلب هواه عقلـه افتضح. ومن استشـار عدوه في صديقه أمـره بقطيعته. ومن فرح بكـذب الناس فـي الثناء عليه بان لهـم حمقه، ومصادقـة الكرام غنيمة، ومصادقة اللئام ندامة. وعُدة الكريم نقد، وعُدة اللئيم تسويف"(١٢).

ولعل خير مقابل للمعاني هو صداها داخل الحياة والوجود والقيم، وداخل قلب كل واحد منا.

---

(12) المحاضرات، م.م، ص. 224.

خاتمة

إن التقابل التأويلي مشروع قرائي متعدد الواجهات والمداخل، على مستوى أدوات المقاربة؛ فهو يعضد غيره من المناهج، كما يمكنه أن يستفيد من إمكانياتها وتقنياتها التحليلية؛ بمعنى آخر إنه يؤمن بالأخذ والعطاء، وتبادل الجهود، واستعارة الأدوات التحليلية إذا تطلب الاشتغال على النص ذلك.كما يقوم على الانفتاح والإبداعية؛ إذ يسمح مع كل قراءة، ومع كل قارئ بظهور مفاهيم جديدة، وأدوات قرائية أو تحليلية، لكنه ينطلق من أرضية تأويلية واحدة، وهي رصد التقابلات المعنوية تبعا للعلاقات الموجودة بين الكلمات والجمل والأساليب والضمائر والعلامات والبنيات البلاغية، أو أي عناصر نصية أخرى تفيد في بناء المعنى.وتنفتح كلما لزم الأمر- وخاصة إذا عجز القارئ عبر المكونات النصية عن بلوغ المعنى - على المواد السياقية التي تُستحضر لحظة القراءة، وَفْق أبعاد تقابلية لدعم القصور التأويلي الحاصل لحظة الفهم وصناعة المعاني.

ليس هناك ما يلزم أي مقاربة تأويلية بوضع مخطط نهائي لمفاهيمها وأدواتها، فهي تظل محل اجتهاد مستمر وتطوير دائم وإغناء وتوسيع وتطعيم. من هذا المنطلق فإننا لا نسعى إلى تقييد حرية القراءة التقابلية وتحديد مفاهيمها وآلياتها في عناصر ثابتة، كما هو معمول به في بعض المناهج النقدية، إذ نستند في اقتراحنا إلى خلفية تأويلية قائمة على نظريات القراءة والتلقي، وإلى نظريات النص والخطاب، وتعدد القراءات.

وهكذا، فبوسع القارئ المهتم بتحليل النصوص والخطابات والظواهر الوجودية من حوله، أن يعتمد المنطلقات ذاتها، والمقترحات

التأويلية التي انطلقنا منها، وأن يختار له من المفاهيم والأدوات ما يراه مناسبا. ونقدم فيما يلي مجموعة من المفاهيم التي استخلصناها من الاشتغال على مجموعة متنوعة من الظواهر النصية[1]:

1- **التقابل**: محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها ببعضها (وجها لوجه)، لإحداث تجاوب ما أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي.
2- **تقابل الإثبات والنفي**: إثبات معنى ومقابله نفي معنى آخر.
3- **تقابل الآحاد**: أي تقابل مفردتين، بأي شكل من أشكال التقابل المذكورة.
4- **التقابل الافتراضي**:يقوم على الافتراضات المعجمية والوجودية وافتراضات الإمكان.
5- **تقابل الأمكنة**: حضور أمكنة متقابلة في النص بينها علاقات، لها دلالات على ضوء التجربة المعبر عنها.
6- **التقابلات الاستتباعية**: هي تقابلات متفرعة عن التقابل النووي، تكمِّله وتوسع مجال المعنى.
7- **التقابلات الصغرى المؤطَّرة**: تقابلات جزئية داخل النص، مثل تقابل التناقض، تقابل التخالف...
8- **التقابلات الكبرى**: تقابل الفقرات، أو المقاطع، أو تقابل النص بنصوص أخرى، تقابل نصوص الديوان الواحد، تقابلات ذات موضوع واحد أو موضوعات مختلفة.
9- **التقابلات النصية المؤطِّرة**: هي التقابلات السياقية الخارجية عن النص، مثل أحوال المنتِج والمجتمع والتاريخ ومقامات تداول

(1) سبق أن أوردنا هذه المفاهيم في كتاب: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، م.م، ونعيدها هنا لتمكين القارئ منها، ومن أراد التمثيل لها فلينظر هناك.

النص.

10- **تقابـل التحـاور**: ينبنـي علـى مقابلـة الـذوات المتحـاورة، ومقابلـة كلامهـا، وردود أفعالهـا، والمواقف والمشـاعر المعبَّر عنها. ولهذا الإجراء دور في بناء المعنى.

11- **تقابـل التراتب**:حضـور عناصـر بينهـا تراتبيـة، وإجراء هـذا التقابل يسمح بفهم حسن لها، عن طريق إدراك العلاقات بينها.

12- **تقابل التشـابه**: أن يَرِد في الكلام مشـبه ويقابله في الفهم مشـبه به، بشكل صريح أو بشكل ضمني.

13- **تقابل التشارك اللفظي**:ورود كلمتـين مشترِكتين في اللفظ، مختلفتـين في المعنى.

14- **تقابـل التشـاكل**:وهو تقابـل بين بنيـة نحوية، أو بلاغية أو صوتية - مثلا- مع نظيرتها، وإدراك هذا التركيم الاختياري يسـاعد في بناء المعنى.

15- **تقابـل التصديـر**: من التحـــيات البلاغية، ويتحقق برد العجُز على الصَّدر، وهو يُمَكِّن من إيضاح الفروقات الدلالية ذهنيا.

16- **تقابـل التفـارق**: أن يـرِد فـي الكلام أمران من نـوع واحد، ثم يُظهر التقابل ما بينهما من تفاوت وتفارق.

17- **تقابل التمثيل**: تقابل يقيمه المؤوِّل بناء على واقعة أو حدث، فيبني معنى مقابلا يسـتخلصه اعتمادا على طاقته التأويلية، ويتخذه حالة اعتبارية.

18- **تقابل التناسـب**: الجمع بين أمر وما يناسـبه من نوعه، أو ما يلائمه من وجه من الوجوه.

19- **تقابـل الحاضـر والغائـب**: إحـداث تواجه بين أجـزاء نصية حاضرة بأخرى غائبة.

20- **تقابل حال الذوات**: يُدرَك بالوقوف على أحوال الذوات المذكورة،

بما يُظهر العلاقات بينها.

21-**تقابل الخبر والإنشاء**:يتوجه اهتمام المؤوِّل إلى إدراك نوع الأسلوب الحاضر في بنية النص، مؤوِّلا دلالة الخبر والإنشاء على ضوء موضوعهما وموضوع النص ككل.

22-**تقابل الخطاب**:وهو أن ترِد في الكلام ضمائر مختلفة، وبوسع التنبه لذلك -بشكل تقابلي- تيسير الفهم وإجلاء المعنى.

23-**التقابل الزمني**: حضور حالات أو أوضاع زمنية متقابلة في بنية الخطاب.

24- **تقابل الصيغ والأوزان**: هو تماثل بين الكلمات يولِّده اشتراكها في وزن أو صيغة معينة.

25-**تقابل الظاهر والباطن**: حضور تواجه بين معاني نصية ظاهرة-مواقع ممتلئة- بمعاني نصية باطنية مفهومة.

26-**تقابل الفاعل والمفعول**: ورود الفاعل والمفعول به في البنية موضوع الفهم. وإدراك ذلك إجراء يساعد على بلوغ المعنى، خاصة في البنيات الغامضة أو المشكلة، أو التي حصل فيها تقديم وتأخير.

27-**التقابل المتعدد**: حضور عناصر متعددة مُشبَّهة تقابلها عناصر متعددة مُشبَّه بها.

28-**تقابل المعنى ومعنى المعنى**:المقصود به التواجه الحاصل والمبني بين الجزئيات المعنوية الباطنية والجزئيات المعنوية الظاهرة. ويتحقق عبر المجاز والاستعارة والكناية والتورية...

29-**تقابل المقاصد**: حدوث تواجه بين مقاصد المنتج- مثلا-ومقاصد المؤوِّل الظاهرة أو الخفية، اتفاقا أو اختلافا.

30-**تقابل المقاطع أو الفقرات**: هو تقابل نصي بين بنيتين أوسع من الجملة، بينهما تقابل في معنى ما، بأي شكل من أشكال التقابل

الممكنة، تبعا للعلاقات الدلالية التي يمكن فهمها أو تكوينها: التتميم، الاستطراد، تنمية الحدث، التكامل، الانتقال، التناقض، التمثيل، الاختلال، الاختلاف....

31-**تقابل النسق**: أي تقابل مجموعة من العناصر يربطها نظام محدد بعناصر أخرى تعتمد النظام نفسه.

32-**تقابل النسق التواصلي**: نقصد بها مؤشرات التخاطب الظاهرة أو الخفية، التي تحتوي كلا من المرسِل، والمرسَل إليه، والرسالة، ومقام التواصل، والعلاقات بين هذه العناصر.

33-**تقابل النص وسياقه**: تستحضر إلى جانب المعرفة بالنص، معرفة كل المستويات الخارجية: الاجتماعية والتاريخية والنفسية التي توضح خلفيات النص، ومقاصد ونوايا منتجه، وأحاسيسه لحظة الإنتاج.

34-**تقابل النص والعنوان**: تقابل نص مصغَّر مع عنوان مكبَّر، تقابل البنية المعنوية المكثفة مع بنية معنوية موسعة ومفصلة، وله مظاهر مختلفة.

35-**التقابل النظيري**: تقابل بين كلمتين مترادفتين في المعنى داخل بنية واحدة.

36-**تقابل النظائر النصية**: المقصود به تلاقي نصين أو أكثر في معنى معين، أو موضوع، أو فكرة، أو مسألة لغوية، أو بلاغية، أو نحوية، ويساعد استحضار هذا التقابل في دعم الفهم وبلوغ المعنى.

37-**التقابل النقيضي**: هو ورود كلمتين متضادين في بنية الكلام.

38-**التقابل النووي**: هو التقابل المركزي في النص، بين موضوعين، أو حالتين، أو زمنين، أو قيمتين، أو وضعين. ويتبينه المؤوِّل من خلال اطلاعه الأولي الاستقصائي على النص. وهو غير كاف لبناء الدلالة الكلية، لكنه قد يُعتمد كقاعدة لفهم النص أو تفهيمه- خاصة في

مجال تدريس النصوص الأدبية - ليتم استكمال التقابلات الصغرى. وقد نعدله كلما تعمقنا في التأويل، وعليه تتأسس بقية التقابلات التفصيلية والجزئية.

وإجمالا، فإن التقابلات حسب المقامات والمحافل المشار إليها، هي نتاج الإستراتيجية القرائية التي سعينا إلى التأسيس لها، من خلال مقاربة العديد من النصوص والخطابات، وقد كشفت لنا عن قوتها التحليلية، في الوقوف على مناحي صناعة النصوص، فيما يتعلق بنظم المعاني، داخل قوالب تعبيرية وجمالية أو استدلالية، موجهين في ذلك بخلفيات نظرية تأويلية عربية وغربية، وإن لم تظهر في ثنايا هذا الكتاب بشكل مباشر، لكن أثرها حاضر بشكل أو بآخر في هذه المقترحات التأويلية. ولا شك أن الاعتماد عليها جزئيا أو كليا من شأنه أن يوقف دارس النصوص والخطابات على تجليات كثيرة للتقابل.

كما نأمل أن يُنتفع بآليات **التأويل التقابلي** في تفسير النص القرآني، والحديث النبوي الشريف، وتفهيم معانيهما وإيقاف المؤَوَّل لهم على أسرار بلاغتهما. ومن شأن الخطوات القرائية المتبعة والمفاهيم المقدمَة الإسهام،كذلك، في مقاربة خطابات النقد داخل حقل نقد النقد، والدراسات الأدبية المقارِنة.

وأخيرا، فالتأويل بالتقابلات أداة إجرائية ناجعة في المجال التربوي والتعليمي، خاصة فيما يتعلق بقراءة النصوص وتحليل الخطابات الدينية، أو الأدبية، أو الفكرية، أو الفلسفية المدروسة، لما له من قوة قرائية وإقرائية وتفهيمية وتبسيطية، توقِف الطلاب على المعاني، وكيفية صناعتها واكتشاف أسرار جمالها وبلاغاتها.

والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

المصادر والمراجع المعتمدة

أولا: باللغة العربية

- **كتاب الله تعالى، القرآن الكريم**، طبع بالرسم العثماني على رواية الإمام ورش بالخط المغربي، دار المصحف، القاهرة.
- **الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- **بارت رولان، درس السيميولوجيا**، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1986.
- **بازي محمد، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات**، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ومنشورات الاختلاف،الجزائر، الطبعة 1، 2010.
- **بيدبا** الفيلسوف الهندي، **كليلة ودمنة**، تر: عبد الله بن المقفع، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **التفتازاني** أبو الوفا الغنيمي، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 3، 1979.
- **الجابري** محمد عابد وآخرون،**أبو حامد الغزالي**: "دراسات في فكره وعصره وتأثيره"، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1988.
- **خطابي محمد، لسانيات النص،مدخل إلى انسجام الخطاب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط.1، 1991.
- **(ابن) خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل**، تقديم أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ط)، 1991.
-**خمري حسين، نظرية النص** من بنية المعنى إلى سيميائية الدال،

الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2007.

- **القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: **محمد** الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 3، 1996.

- **القزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط.5، 1980.

- **القالي أبو علي بن القاسم البغدادي، ذيل الأمالي والنوادر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج.3، ط.1 (د.ت) .

- **القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق: **محمد** قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط. 2، 1997.

- **الرافعي** مصطفى صادق، **تاريخ آداب العرب**، راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، **طبعة** 2002.

- (**أبو**) **ريشة عمر**، الديوان، دار العودة، بيروت، ط. 1، 1971.

- **الزركشي** بدر الدين، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: **مصطفى** عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988.

- **الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تصحيح وضبط: **محمد** عبد السلام شاهين،دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1995.

- (ابن) **الزيات، التشوف إلى رجال التصوف** وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، 1984.

- (**أبو**) **زيد أحمد، التناسب البياني في القرآن الكريم**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1992.

- **زيعور علي، الكرامة الصوفية**، الأسطورة والحلم، دار الطليعة،

بيروت، ط.1، 1977.
- **السبكي** تاج الدين، **طبقات الشافعية**، المطبعة الحسنية، مصر (د.ت) .
- **السجلماسي** أبو محمد القاسم، **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط.1، 1980.
- **السعدي عبد الرحمان بن ناصر**، **تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان**، دار ابن الهيثم، الطبعة 1، 2000.
- **السكاكي** أبو يعقوب، **مفتاح العلوم**، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1983.
- **السهرودي**، **عوارف المعارف**، دار إحياء التراث العربي، ملحق الإحياء. بيروت، (د.ت) .
- (ابن) **سيده**، **شرح المشكل من شعر المتنبي**، تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 1976.
- **السيوطي** جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1991.
- **الصبيحي محمد الأخضر**، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2008.
- (ابن) **عبد ربه**، **العقد الفريد**، تحقيق عبد المجيد الترحيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.3، 1987.
- **العسكري** أبو هلال، **كتاب الصناعتين** الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1981.

- **العيدروس عبد القادر، تعريف الأحياء بفضائل الإحياء**، ملحق إحياء علوم الدين، بيروت، (د.ت) .
- **الغزالي أبو حامد:**
* **إحياء علوم الدين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت) .
* **جواهر القرآن ودُرَره**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.5، 1983.
* **مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار**، تحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، 1998.
* **معيار العلم في المنطق**، شرحه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1990.
* **محك النظر**، تحقيق:رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط.1، 1994.
- **القرعان فايز عارف، التقابل والتماثل في القرآن الكريم**، عالم الكتب الحديث إربد الأردن وجدارا للكتاب العالمي، عمان، ط. 1، 2006.
- **كريستيفا جوليا، علم النص**، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال،الدار البيضاء، ط.1، 1991
- **كِليطو عبد الفتاح،**
* **الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي**، دار الطليعة، بيروت، ط.1.
* **الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي**، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.
* **الكتابة والتناسخ**، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1985.

* **العين والإبرة**، ترجمة مصطفى النحال، الفنك، الدار البيضاء، ط.1، 1996.
* **لسان آدم**، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.1، 1995.
* **الغائب**، دراسة في مقامة الحريري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.1، 1987.
- مروة محمد رضا، **الصعاليك في العصر الأموي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1990.
- مفتاح محمد،
* **تحليل الخطاب الشعري**، إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط.2، 1987.
* **التشابه والاختلاف**، نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط. 1، 1996.
* **التلقي والتأويل**: مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط.1، 1994.
* **دينامية النص**، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1990،2.
* **مجهول البيان**، دار توبقال،الدار البيضاء، ط.1، 1990.
* **المفاهيم معالم**، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط.1، 1999.
- (ابن) منظور جمال الدين بن محمد، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط. 3، 1994.
- **المهدلي محمد عقيل بن علي**، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت للوصول إلى الحقيقة، دار الحديث، القاهرة، ط.2، 1985.

- **اليابوري أحمد، دينامية النص الروائي**،منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط.1.
- **يقطين سعيد، انفتاح النص الروائي** (النص -السياق) المركز الثقافي العربي، بيروت-البيضاء، ط.1، 1989.
- **اليوسي الحسن،**
* **زهرة الأكَمْ في الأمثال والحِكم**، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب،دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.1، 1981.
* **المحاضرات**، أعدها للطبع: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

مقالات:

- **عبد العزيز السبيل، ثنائية النص**، قراءة في رثائية مالك بن الريب، عالم الفكر،1998، مج.27، ع 1.
- **فتوح محمد أحمد، جدليات النص**، عالم الفكر، المجلد الثاني والعشرون، 1994، ع. 3 و4.
- **مفتاح محمد، في سبيل فهم جديد للنقد**، حوار مع أجراه محمد الدغمومي وسعيد يقطين، مجلة آفاق الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب، ع.7، 1980.

ثانيا: باللغة الأجنبية

- **Eco.U,**
  - Les limites de l'interprétation, Traduit par Myriam Bouzaher, Bernard Grasset, Paris, 1991.
  - Sémiotique et philosophie de langage, traduit par Myriem Bouzaher, P.U.F, Torino, 1984.
- **Gadamer. H. G**. Méthode et vérité, Seuil, Paris. 1976.
- **Greimas A. J. et J. Courtes**, Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette Université, Paris, 1979.
- **Houari Touati** , les modèles d écriture des manaquib maghrébines, dans: Histoire et linguistiques- ouevre collective - université mohamed 5, Rabat.
- **Hirsh. E. D**. Validity in interpretation, Yale universsity press, New haven and London, 1967.
- **Juhl P. D.** Interpretation, an essay in the philosophy of literary criticism ; New jersy, 1980
- **Molino Jean**, interpréter, dans l'interprétation des textes, ed. Minuit, Paris, 1989.
- **Rastier, F**. Sémantique interprétative, Ed. P.U.F, Paris, 1987.
- **Ricœur, P**. Le conflit des interprétations, Ed.Seuil, Paris, 1969.
- **Searle, R**. L'intentionalité. Ed. Minuit, Paris, 1985.
- **Todorov. T. Ducrot. O**. Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage , Seuil, Paris, 1972.

تقابلات النص وبلاغة الخطاب

نحو تأويل تقابلي

محمد بازي

• كاتب من المغرب

• صدر للمؤلف أيضاً:



لوحة الغلاف للفنان سنان حسين
art.si@hotmail.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

تقوم إستراتيجية التأويل التقابلي على التقريب بين العناصر والمستويات ذهنياً، بأي شكل من الأشكال، وذلك عبر إحداث تواجُه بين بنيتين، أو وضعين، أو موقفين، أو غير ذلك. إنه اشتغال في الفهم يقوم على التساند بين الآليات التي تنبني عليها النصوص والخطابات من جهة، وعلى الجهد الذهني المستقصي للمعاني والعلاقات الممكنة بين العناصر والمستويات.

يقوم المقترح القرائي في هذا الكتاب على المزاوجة بين التقديم النظري الموجز، والتقريب التمثيلي والتطبيقي المبسّط لاستراتيجية التأويل التقابلي؛ وسيلاحظ القارئ أن مستويات التناول تختلف من نص لآخر، كما أن المفاهيم الموظفة في القراءة متباينة، وهذه سمة مميزة للتأويل بالتقابلات، فهو يتجاوز الحدود الضيقة، والإجراءات المنهجية الرتيبة والمتكررة في التناول، ويفتح المجال واسعاً في كل قراءة نصية للإبداع بالقدر الذي يظهر قدرة صاحبها على الاكتشاف، وابتكار مداخل قرائية قادرة على التفاعل مع النص وتذوقه.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ISBN 978-9953-87-973-4

9 789953 879734